موسوعة
الوسطية العربية

القرآن الكريم
ومذهب الوسطية

الكتاب السادس

تأليف

الدكتور/ عبد الحميد إبراهيم
عميد كلية دار العلوم - جامعة المنيا

الناشر
دار طيبة للنشر والتوزيع
والتجهيزات العلمية

رقم الإيداع 2005/8328
الترقيم دولي6 –33-6102-977

موسوعة الوسطية العربية

القران الكريم ومذهب الوسطية : الكتاب السادس

تأليف: د عبد الحميد إبراهيم

23 شارع الفريق محمد ابراهيم - متفرع من مكرم عبيد – مدينة نصر القاهرة ج.م.ع
تليفون : 2725312-2725376- 6706912 (02)
فاكس : 6706912(02)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ(٧)

صدق الله العظيم

فاتحة الكتاب

سورة الفاتحة لم تكن أول ما نزل من القرآن الكريم ، ولا هى من أوائل السور التى أنزلت بمكة المكرمة ، ومع ذلك فهى توضع أول المصحف الشريف ، وتسمى أم الكتاب .

ويذكر النسفى أنها سميت كذلك لأنها تشتمل « على المعانى التى فى القرآن » ، وما أظنه يريد أنها تشتمل على كل المعانى التى هى فى القرآن ، فهو من باب المستحيلات أن تحتوى سورة قصيرة لا تزيد على سبع آيات بما فيها آية البسملة ، على كل ما ورد فى القرآن الكريم ، فلعله يريد أنها تشتمل على الغرض الأساسى فى القرآن ، الذى ترتد إليه بقية الأغراض ، وتدور حوله بقية المعانى .

وإذا أردنا أن نحدد هذا الغرض فى سورة الفاتحة، فإننا نلتمسه فى كلمة "الصراط المستقيم" فما قبل هذه الكلمة هو حمد وعبادة واستعانة ، وما بعدها هو تفصيل لها وتبقى هى الغرض الأساسى الذى تدور حوله معانى هذه السورة .

إن وصف الصراط بالاستقامة يجعلنا فى مواجهة الوسطية ، فيما يهدينا إليه السياق القرآنى ، فى استخدامه للجذر اللغوى "قوم" وما يشتق منه من مفردات ، وما يتفرع عليه من معان .

فقد وردت آيات كثيرة تشير إلى معنى الوسطية فى هذا الجذر ومشتقاته ، نبدؤها بالآية الكريمة فى سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾.

إن كلمة "قواما" فى هذه الآية تشير إلى الطريق الوسط بين تطرفين : أول ، والتقتير تطرف ثانى ، وهذا هو ما يشير إليه النسفى أثناء تفسيره لهذه الآية فيقول :

"وكان إنفاقهم بين ذلك أى الإسراف والإقتار ، قواما أى عدلا بينهما ، فالقوام العدل بين الشيئين ، والمنصوبان أى بين ذلك قواما خبران ، وصفهم بالقصد بين الغلو والتقصير ، وبمثله أمر عليه الصلاة والسلام ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ الآية .

وسأل عبد الملك بن مروان عمر بن عبد العزيز عن نفقته حين زوجه ابنته : الحسنه بين السيئتين ، فعرف عبد الملك أنه أراد ما فى هذه الآية .

ومثل هذا المعنى يتفق عليه بقية المفسرين ، وتتوارد عليه آية أخرى تحبذ الوسطية والعدالة والاستقامة ، وتحذر من التطرف بكافة صوره ، فمرة تصفه بأنه من السبل المتفرقة التى تبتعد عن الصراط المستقيم كما فى آية سورة الأنعام ،وثانية فأنه الطريق المعوج الذى ينحرف عن الطريق القيم كما فى آية سورة الكهف . وثالثه بأنه الطريق يتخبط فيه صاحبه على وجهه بعيدًا عن الطريق السوى المستقيم ، كما فى آية سورة الملك . إن هذا السياق القرآنى لاستخدامات الجذر "قوم" ومشتقاته يجعل من وصف الصراط بالاستقامة ، يعنى أن هذا الطريق هو طريق القصد والاعتدال ، أو بعبارة أخرى هو طريق الوسط الذى يبتعد عن التطرف بكافة صوره .

ولعل هذا هو ما دفع الجرجانى ، فى أن يضفى على تعريف الاستقامة معنى الوسطية فيصفها بأنها :"ملازمة الصراط المستقيم بمراعاة الحد الأوسط فى كل الأمور ، فى الطعام والشراب واللباس ، وفى كل أمر دينى ودنيوى ، فذلك هو الصراط المستقيم كالصراط المستقيم فى الآخرة ، ولذلك قال النبى ﷺ :« شيبتنى هود إذ أنزل فيها ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ » .

* * *

فالصراط المستقيم إذن هو طريق الوسطية .فيما اهتدينا إليه من التحليل اللغوى والسياق القرآنى .

ولكن هناك ناحية أكثر وضوحًا فى تحديد هذا الطريق تغنينا عن أية إشارة أو استنتاج . فقد نص بعض المفسرين على ذلك . وذكر أن الصراط المستقيم هو طريق الوسطية ، أو على حد تعبير النسفى : « وقيل المغضوب عليهم هم اليهود لقوله تعالى ﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ ﴾ وغضب عليه والضالون هم النصارى ، لقوله تعالى ﴿ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ﴾ .

إن النسفى يورد ذلك بأسلوب التضعيف ، ويستخدم كلمة « قيل » التى توحى بمرجوحية هذه الآراء . ولكن التحليل اللغوى هذا الرأى والسياق القرآنى يجعلان هذا الرأى أكثر ترجيحًا وأكثر تحديدًا ، من آراء أخرى تقترب من العمومية ، فتفسر

الصراط المستقيم بأنه الإسلام أو القرآن ، وإن كانت هذه الآراء فى الجملة تختلف فى التعبير ، ولكنها فى النهاية تتفق على الهدف ، يقول ابن تيمية :

"ومن تدبره عرف أن أكثر أقوال السلف فى التفسير متفقة غير مختلفة مثال ذلك قول بعضهم عن الصراط المستقيم أنه الإسلام ،وقول آخر إنه القرآن ، وقول آخر إنه السنة والجماعة ، وقول آخر إنه طريق العبودية ، فهذه كلها صفات ملازمة لا متباينة »

وليس المراد عند النسفى أهل اليهود جملة ، ولا أهل النصارى جملة .ولكن المراد طائفة من اليهود وطائفة من النصارى ،انحرفوا بالديانتين السماويتين عن أهدافهما السامية . لأن القرآن الكريم يعترف بأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ويرى أن الأديان السماوية تنحدر من مصدر مشترك ، ﴿ **قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾.

إن القرآن الكريم يدمغ الانحراف عند بعض اليهود ، ممن مالوا إلى المادية المفرطة ، ووصلوا إلى حد القسوة والجمود ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ .

وإن القرآن الكريم يدمغ الانحراف عند بعض النصارى ، ممن مالوا إلى المثالية المفرطة ووصلوا إلى حد الرهبنة ﴿ **وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ** ﴾ .

ويؤيد ذلك ما ذكره الطبرى وهو يفسر آية الوسطية ، فى سورة البقرة التى تلى مباشرة سورة الفاتحة ، فيقول :

« وأرى أنا الله تعالى ذكره ، إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم فى الدين ، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى ، الذين غلو بالترهب وقيلهم فى عيسى ما قالوا فيه ، ولاهم أهل تقصير فيه تقصير اليهود ، الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به » .

والطبرى هنا لا يدمغ اليهودية ولا النصرانية ، لأنهما ديانتان سماويتان تنتميان إلى أصل ، ولأن موسى وعيسى عليهما السلام ينتسبان إلى أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، إن الطبرى يدمغ التطرف والانحراف عن القصد والاعتدال فى صوره

المختلفة ، سواء كان المنحرف يهوديًا أو نصرانيًا ، ونضيف « أو كان مسلمًا » لأن الصراط المستقيم هو دين الحنفية ،الذى تلتقى على أرضة الديانات السماوية الثلاث.

مرة أخرى نجد التحليل اللغوى لمادة « قوم » داخل السياق القرآنى ،يؤكد فكرة: المصدر الواحد للديانات السماوية . فقد وردت هذه المادة مرة بصدد الحديث عن أهل الكتاب (اليهود والنصارى) كما فى قوله تعالى :

﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ آل عمران ١١٣ .

ووردت هذه المادة أيضًا ، بصدد الحديث عن الإسلام . كما فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء ٩.

ووردت كذلك أكثر من مرة بصدد الحديث عن الحنفية ، كما فى قوله تعالى :
﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يونس ١٠٥.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ الروم ٣٠ .

وكل هذا يؤكد على المصدر الواحد للأديان السماوية ، وهو دين الحنفية والقصد والاعتدال ، فى مواجهة الشرك والطغيان والبغى والعدوان والإسراف ، وهى صفات وردت فى القرآن الكريم ، وتلتقى كلها على معنى واحد ، وهو مواجهة الانحراف عن الصراط المستقيم .

إن السياق القرآنى لاستخدام كلمة "الحنفية " يؤكد على المصدر الواحد ، فقد وردت مصحوبة بالحديث عن دين إبراهيم عليه السلام . كما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ البقرة ١٣٥ .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ﴾ آل عمران ٦٧

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ آل عمران ٩٥

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النساء ١٢٥

﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ الأنعام ١٦١

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل ١٢٠

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ النحل ۲۳

فالصراط المستقيم إذن هو طريق العدالة والاستواء ، الذى يبدأ من دين الحنفية كما بشر بها إبراهيم عليه السلام ، وينتهى إلى دين الإسلام الذى جدد الحنفية بعد أن درست وانحرف بها بعض أهل الكتاب عن الطريق القيم . الذى يحارب فى صوره المختلفة الانحراف والتطرف والاعوجاج ، سواء عند اليهود أو النصارى أو المسلمين .

ذلكم هو الصراط المستقيم ، وهو طريق الوسطية بين تطرفين . ومن هنا كان محفوفًا بالمخاطر ، ولا يمكن الوصول إلية باجتهاد عقلى ولا بمنطق شكلى ، فهو يتم داخل الحياة ، ويعترف بالضعف البشرى ، ويحتاج دائمًا إلى الله وعنايته ، حتى يستطيع أن يقبض على المتقابلات ، وأن يوازن بينهما وهو فى قلب الحياة ، دون أن يلجأ إلى برج من عاج ، أو يتستر وراء لذة ذهنية . ومن هنا جاء التعبير فى الصراط المستقيم فى سياق العبادة والاستعانة والدعاء بالهداية .

ولا يعنى هذا البتة أن المرء يتنكر للعقل والمنطق . ولكنه يعنى أن يجتهد وأن يستنفذ كل قواه البشرية ، ثم يدع تقدير النتائج للحكمة الإلهية . إنه موقف وسطى يدفعه إلى أن يعمل ، ولا يفرط فى مواهبه وقدراته ، ولكنة فى الوقت نفسه لا يقع فى الإفراط ، ويتيه بإنجازاته ومقتنياته .

* * *

ولا يقف الأمر فى فاتحة الكتاب عند احتوائها على مذهب الوسطية فى مضامينها الدلالية ، بل تعداه إلى حد تعبيرها عن الوسطية خلال بنيتها التركيبية .

يذكر المفسرون حديث أبى هريرة الذى يقول فيه :

« سمعت النبى ﷺ يقول : قال الله تعالى : قسمت الصلاة أى الفاتحة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) ، قال الله تعالى : حمدنى عبدى . وإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى : أثنى على عبدى . وإذا (قال مالك يوم الدين) ، قال : مجدنى عبدى .وإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) ، قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال (إهدنا الصراط

المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) ، قال : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل » .

فالسورة إذن قسمة بين الله والعبد ، نصفها لله ونصفها للعبد ، ويبدأ النصف الأول بجمل خبرية تفيد الشكر لله رب العالمين ، الموصوف بصفات متقابلة ولكنها متكاملة ، فهو ذو الرحمة وصاحب الملك ، أو بتعبير أقرب إلى الحديث النبوى ، هو صاحب الثناء وصاحب المجد .

أما النصف الآخر فإن أظهر ما فيه هو الجمل الدعائية والتى تلخص نوعية العلاقة بين الله والعبد .

وهى علاقة تحتفظ بمسافة بين عالم الأمر وعالم الخلق ، فلا يتجرأ مخلوق على مقام الخالق ، وفى الوقت نفسه لا يستطيع أن يعيش فى كون خال من الرحمة والجلال . إنه الموقف الوسطى الذى يطل علينا من جديد . فلا فناء فى الذات الإلهية كما يفعل الحلولية وأصحاب وحدة الوجود . ولا إنكار لتلك الذات كما يفعل المشركون وأصحاب المذاهب المادية .

* * *

وقد توصلت فاتحة الكتاب إلى رؤيتها الوسطية عن طريق الجمال اللفظى ، الذى يعكس الذوق العربى الأصيل .

فالآيات قصيرة ، يستطيع أن ينطق بها الطفل أو المكروب أو المصلى مقدار نفس واحد . وعلى الرغم من أن الآية الأخيرة ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ طويلة قياسا إلى بقية الآيات ،إلا أن هناك وقفة وجيزة ومضمرة عند الكلمة « الذين » وهى وقفة يستشعرها المرء داخله حتى لو لم ينص عليها علماء القراءات ، إنها محطة خفيفة مضمرة يستحضرها القارئ داخله ، خاصة أن كلمة « الذين » تنتهى بالنون قبلها المد ، شأن بقية الفواصل فى (العالمين ، الدين ، نستعين ، ولا الضالين) .

إن فواصل هذه السور ، لا تخرج عن حرفى الميم أو النون ، وهما حرفان يتقاربان فى المخرج ، وإن كانا لا يتماثلان فيه تمامًا ، مما يعطى قدرًا من التنوع ، لا يصل إلى حد المطابقة ، ولا إلى حد التنافر .

ويصل الإعجاز إلى حد أن هذين الحرفين (الميم والنون) يتكرران كثيراً داخل السورة، ويضاف إليهما حرف اللام، وهو من مخرج قريب من مخارج الميم والنون. فقد تكررت الميم المنطوقة نحو من عشر مرات، والنون المنطوقة نحـو تسـع مـرات، واللام المنطوقة نحو أربع عشرة مرة، مما يعطى سـهولة فـى المخـارج، وإيقاعـا فـى اللفظ، وتناسبًا فى الجرس.

ومن أجل هذه الحلاوة اللفظية، حلت الصاد محل السين فـى كلمـة «صـراط» والتى هى فى الأصل «سراط» ثم قلبت السين صادا لتكـون قريبـة فـى المخـرج مـن حرف الطاء، لأن الصاد والطاء من حروف الإطباق.

ويصل الحرص على هذا الجمال اللفظى ببعض القراء، أن يشـم الصـاد صـوت الزاى، لأن الزاى قريبة إلى الطاء، وهـى مجـهورة مثلـها، هـذا هـو مـا أشـار إليـه النسفى. وأضيف إليه أن الـزاى تتناسـب مـع السـين قبلـها فـى كلمـة «نسـتعين»، وتتناسب أيضًا مع الذال بعدها فى كلمة «الذين».

إن كل هذا يكسب السورة سهولة فى المخارج؛ وعذوبة فى اللسان، وإيقاعًا فى الآذان، يجعل المرء لا يشبع من تلاوتها، ولا يشعر أبدًا بالملل، على الرغم من أنـه يتلوها كل يوم، سبع عشرة مرة على الأقل وهى عدد ركعات الصلاة المفروضـة يوميًـا على كل مسلم ومسلمة.

والقارئ لا يقف عند هذا الجمال اللفظى، يتلوه فى متعة تخاطب حواسه فحسب. ولكنه يصاعد خلال هذا الجمال نحو الملكوت الأعلى، ونحـو ذلـك الجـو الدينـى الذى يحيط بالسورة، وهنا تطل علينا الوسطية من جديـد، خـلال هـذا التعـانق بيـن المعنى والمبنى، الحواس والمثل، وبين الألفاظ والمعنويـات، فـى تناسـق يرضـى الأذن والروح معًا.

* * *

وبعد .. فإن أى طريق تسلكه وأنت تتلو الفاتحة يفضى بك إلى الوسطية.

إن سلكت الدلالة وجدت نفسك فى مواجهة الوسطية.

وإن حللت البنية التركيبية، التقيت بالوسطية.

وإن وقفت عند التحليل اللغوى ، جابهتك الوسطية .

وإن تبعت سياق الألفاظ ، انتهت بك إلى الوسطية .

وإن استمتعت بحلاوة الجرس ، تصاعدت بك نحو الملكوت الأعلى .

وهذا يعنى أن فاتحة الكتاب ، تبرز جوهر هذه الأمة ، التى وصفت ، فى السورة التى تليها مباشرة . بأنها أمة وسط .

وهذا يعنى أيضًا أن الفاتحة تشتمل على المعانى التى هى فى القرآن على حد النسفى . أو بعبارة أخرى لا أظنها تبتعد كثيرًا عن مراد النسفى : إنها تشتمل على المعنى القرار أو الأساس ، الذى تنبثق منة جميع المعانى ، ثم ترتد إليه لتفصله أو تجمله أو تشرحه ، وفى النهاية لتعمقه فى النفوس .

ومن أجل هذا ، سميت السورة بأم الكتاب .

ومن أجل هذا أيضًا جاءت فاتحة للكتاب .

آية الوسطية
والبحث عن خصوصية

دعت فاتحة الكتاب إلي الصراط المستقيم ، وفسر المفسرون الصراط بأنة الطريق الوسط بين تطرفين : تطرف المغضوب عليهم ممن حرفوا الديانة اليهودية وتطرف الضالين ممن انحرفوا بالديانة النصرانية عن أصولها السليمة .

وتأتى سورة البقرة ، وهي السورة التى تلى الفاتحة مباشرة ، فتجمع بين الصراط المستقيم و الوسطية في مكان واحد ، فتقول : ﴿ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ . ويفسر الطبرى الوسطية هنا بأنها الطريق الوسط بين تطرفين ، تطرف أهل الغلو من النصارى الذين ابتدعوا الرهبانية . وتطرف أهل التقصير من اليهود الذين حرفوا كتاب الله .

و من هنا نستطيع أن تقول : إن « الوسطية » هى نوع من المناسبة بين السورتين ، يمكن أن نضيفها إلى « المناسبات » التى عددها المفسرون وهم يتحدثون عن الحكمة فى الترتيب ، والتى أشار السيوطى إلى بعضها وهو يتحدث عما يسميه علم المناسبات .

* * *

وقد وردت آية الوسطية فى سياق يقربنا كثيرًا من مفهوم الخصوصية التى أشرنا إليها فى العنوان ، ويؤدى إلى أن الخصوصية ليست انغلاقًا ولا تعصبًا ولا عداءً للآخرين . لأنها كما يفيد السياق تبدأ من تراث المنطقة ، وتتحاور معه ، لتضيف إليه ولتصحح مساره ، وتعيده إلى الصراط المستقيم .

والسياق الذى وردت خلاله آية الوسطية ، يؤكد على أمرين :

أولهما هو الصراط المستقيم . والآخر هو الانحراف عن الصراط المستقيم .

وتأتى الآية الكريمة ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ . لتقدم المقياس الصحيح الذى يفصل بين الاستقامة والانحراف وبين الحق والزيف . إن المقياس لا ينبنى على

الحسب والنسب ، ولا على مشاعر التضخم والاستعلاء على الآخرين ، ولكنة مقياس يقوم على الإيمان بالكلمات التامات وبالعهد بين إبراهيم وربه ، فمن حرص على العهد ، وتمسك بالمبدأ ، فهو من ذرية إبراهيم ، ومن خرج عن العهد فهو من الظالمين ، مهما تشدق بأنه شعب الله المختار .

ويأتى سياق الآيات فيكشف عن موقف الفريقين : فريق الحق من ذرية إبراهيم ، ويتمثل فى سلسلة الأنبياء إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وسليمان ، وغيرهم ممن ساروا فى الطريق المستقيم ، تقول الآيات الكريمة :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ(١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ(١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

إن هذه الآيات تركز على القاسم المشترك بين ذرية إبراهيم من الأنبياء الصالحين ، وتتمثل فى الحنفية التى وصى بها يعقوب بنيه ، لأنها الدين القيم كما ذكر فى لسان العرب أوهى المستقيم فى كل شئ كما قال الطبرى ، الذى يضيف : وقد

قيل بأن الرجل الذى تقبل إحدى رجليه على الأخرى ، إنما قيل له أحنف نظراً إلى السلامة ، كما قيل للمهلكة فى البلاد المفازة » .

أما الفريق الآخر فهو فريق الظالمين كما وصفتهم الآية الكريمة ، والظلم هو مجاوزة الحد ،كما تدلنا على ذلك اللغة .

وقد تمثلت هذه المجاوزة بوضوح فى اليهود ، وراحت السورة تكشف عن هذه المجاوزة فى آيات كثيرة ، فبعد أن تحدثت فى البداية عن المتقين فى أربع آيات ، وعن الكافرين فى آيتين ، وعن المنافقين فى ثلاث عشرة آية ، وبعد أن تحدثت عن قصة الخلق ، أخذت منذ الآية الكريمة رقم (٤٠) التى تقول ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي ﴾ ، وحتى آخر آية رقم /٢٨٦ ، التى ورد فيها ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ تكشف عن ظلم اليهود ومجاوزتهم للحد ، وذلك فى آيات كثيرة تقع بين هاتين الآيتين ، وترصد انحراف اليهود ، وشراءهم بآيات الله ثمنا قليلا (الآية / ٤١) وكتمانهم الحق (الآية / ٤٢) ،واتخاذهم العجل (الآية / ٥٤) وتبديلهم قولا غير الذى قيل لهم (الآية / ٥٩) ، وقتلهم الأنبياء بغير حق

(الآية / ٦١) ، واعتداءهم في السبت (الآية / ٦٥) ، وقسوة قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد (الآية /٧٤) ، وتحريفهم الكلم (الآية / ٧٥) ، ونبذهم العهد (الآية / ١٠٠) ، وحسدهم لمن زاده الله بسطه في العلم (الآية / ٢٤٧) ، وأكلهم الربا (الآية / ٢٧٥) ، وغير ذلك مما هو متناثر في ثنايا السورة : ومنذ الآية رقم (٤٠) ، ومما يجعل هذه السورة تكاد تكون وقفا على كشف

انحراف اليهود عن الصراط المستقيم ممثلا فى الحنفية ، دين إبراهيم ودين الأنبياء من ذريته الصالحين ، الذين يتمسكون بالعهد ولا ينحرفون عن دين القيمة .

وبهذه الحيثيات توصلت السورة إلى نتيجة مؤداها أن هؤلاء الضالين المسرفين ، لا يستحقون شرف الانتماء إلى الحنفية ، التى بشر بها كل الأنبياء من ذرية إبراهيم الصالحين ، وقد حسمت ذلك فى آية قصيرة ولكنها قاطعة ، وهى الآية التى تقول : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقد تكررت هذه الآية مرتين ، وهى فى كل مرة تأتى فى مجال الشهادة على أن الحنفية هى الحق وأن ما يدعيه اليهود هو انحراف عن الحق ، إن المرة الأولى تأتى عقب الآية رقم /١٣٢ ، التى تثبت أن اليهود لم يكونوا شهداء على وصية يعقوب لبنيه بأن يتمسكوا بالحنفية ، وهو الدين الحق دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . أما المرة الأخرى فهى تأتى عقب الآية رقم /١٤٠ ، وهى الآية التى تسجل كتمان اليهود للشهادة الحقيقية ، التى تؤكد صدق الحنفية دين الآباء من الذرية الصالحة ، وادعاءهم شهادة مزيفة ، تنحرف عن الحنفية ، وتقع فى مجال التعصب والادعاء .

إن هذه الآية قد تكررت مرتين كما قلت ، وفى سياق الشهادة ، وفى عبارة قاطعة وحاسمة ، تؤكد على أن اليهود قد انحرفوا عن التراث ، وحرفوا دين الآباء . وابتعدوا عن الحنفية السمحاء . وكل هذا يمهد لظهور فرع جديد ، يعيد للحنفية رونقها ، ويزيح ما علق بها من غبار وتشويه . وهذا الفرع يتمثل فى ذرية إسماعيل ، ممن سكنوا منطقة الحجاز ، وحملوا معهم دين إبراهيم وتواتروا فى النطف والأصلاب ، حتى انتهى بهم الأمر إلى محمد – رسول الله – الذى جاء ليحيى الحنفية ، ويزيح عنها ما علق بها من تحريف وتشويه ، ومن هنا ترى الإسلام يعلن منذ اللحظة الأولى أنه امتداد الحنفية ، ويسميها الدين القيم ، ويسمى المحرفين بالكفار . وهى كلمة مشتقة من الكفر ، الذى يعنى لغويا الستر والغطاء ، ويعنى دلاليا على أن هؤلاء قد غطوا الحنفية بالكثير من التأويلات ، وأن الإسلام قد جاء ليزيح عنها كل هذا ، حتى تسفر عن وجهها الوضاح .

ومن هنا وعقب الآية الكريمة ﴿ **تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ ، تأتى مباشرة الآيات التى تتحدث عن تحويل القبلة نحو الكعبة ، إيذانا بظهور هذا الفرع على مسرح التاريخ ،ويتحمل أمانة الكلمة . وشرف العهد بين إبراهيم وربه .

* * *

ولم تكن هذه هي المرة الأولى والوحيدة ، التى تمهد لظهور هذا الفرع الجديد ، فإن الآيات من رقم ١٢٤ وحتى رقم ١٢٩ فى السورة نفسها تشير ، الى هذا الفرع ، وتبشر بمقدمة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ(١٢٥)وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦)وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(١٢٧)رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨)رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فهذه الآيات الكريمة تشير فى البداية إلى العهد بين إبراهيم وربه الذى لا يناله الظالمون ، ممن جاوزوا الحد وحرفوا الكلم عن مواضعه . وبعد ذلك تشير إلى إبراهيم وابنه إسماعيل وهما يقيمان القواعد من البيت ، ويطهرانه للطائفين والعاكفين والركع السجود . ويبشران بظهور الأمة المسلمة . ويبعث رسول من العرب ، يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .

إن كلمة « الحكمة » تتكرر فى السياق القرآنى مع إبراهيم ومع ذريته من الأنبياء الصالحين ، وأن يأتى نبى العرب بالحكمة معناه أن يحيى هذا الدين ، أو يعيد للحنفية رونقها ويزيل عنها ما علق بها من انحرافات .

كان هذا هو السياق القرآنى الذى سبق آية الوسطية ، وهو سياق يؤكد على القاسم المشترك بين الأديان ، ويحارب الانحراف عن الصراط المستقيم ، ويسميه « ظلمًا » ، أى مجاوزة للحد كما تفسر اللغة مادة « ظلم » فى وجه من وجوهها .

إن كل هذا يعنى أن الخصوصية ، لا تعنى التعصب والانغلاق ، لأنها فى جوهرها انطلاق من دين الآباء والأجداد ، أو بعبارة أخرى : انطلاق من الذرية الصالحة ، والتى حفظت العهد ، والتزمت بأمانة الكلمة .

ولكن القاسم المشترك هو وجه من وجوه الخصوصية ، ولابد للخصوصية لكى تكتمل أن تضيف إلى القاسم المشترك ، لأنها لو وقفت عند المشترك دون أن تضيف إليه ، لما كان هناك مبرر البتة لوجودها ، وهنا نصل إلى الوجه الآخر فى الخصوصية

، والذى يتلخص فى إضافة الأمة المسلمة إلى دين الحنفية ، وإلى دين طريـق صـراط السابقين من ذرية إبراهيم الصالحين .

إن هذه الإضافة تكشفها الآيات الكريمة ، من الآية رقم ١٤٢ وحتى الآية رقم ١٥١ ، وهى تتلخص فى أمور ثلاثة :

١- تحويل القبلة . ٢- صفة الوسطية .

٣- رسول من العرب .

إن تحويل القبلة لا يعنى مجرد الانتقالية مـن جهـة إلـى أخـرى ، فللـه المشـرق والمغرب وأينما تولوا فثم وجه الله ، ولكنه يعنى بالدرجـة الأولـى تـأكيد خصوصيـة الأمة المسلمة داخل البيت الكبير الذى تنقصه لبنة ، وإبراز ذلك الفرع الـذى ينتـهى إلى إسماعيل عليه السلام ، والذى يمثل اللبنة التى تكمل البناء .

إن هذا لا يعنى التعصب كما قلت ، وكراهيـة الأديـان الأخـرى ، فـإن الإسـلام يبحث عن القاسم المشترك ، ويؤمن بالديانـات السـابقة ، ويسـعى إلـى موافقـة أهـل الكتاب كما جاء فى الأحاديث النبوية ، ولكنه يعنى البحث عن مكانة للأمة المسـلمة وإبراز ما يميزها عن غيرها من الديانـات ، وقـد جـاء فـى الأحـاديث النبويـة أيضًا الدعوة إلى مخالفة أهل الكتاب . ولا تعارض بين الأمرين ، فإن موافقـة أهـل الكتـاب دائمًا تكون فى القاسم المشترك بين الديانات السماوية ، والتى تنتمـى جميعـها إلـى الحنفية دين إبراهيم ، أما المخالفة فإنما تكون فيما يبرز خصوصية الأمـة المسـلمة ، ويؤكد إضافتها إلى الديانات السابقة .

وقد شغل أمر القبلة الرسول ﷺ بعد الهجرة ، وأخذ يقلب وجهه فى السـماء فـى انتظار الوحى لكى ينبئه أن الله قد استجاب دعاءه ، وأن الوقت قد حان لكـى يتوجـه نحو القبلة التى يرضاها ، نحو البيت الحرام ، الذى أقام قواعده إبراهيـم وإسـماعيل عليهما السلام ، وهما يبشران بالنبى الذى سيبعث فـى أمـة العرب يعلمـهم الكتـاب والحكمة ، بمعنى أنه ينطلق مـن الحكمـة التـى بشـر بـها أجـداده مـن ذريـة إبراهيـم الصالحين ، وفى الوقت نفسه يأتيهم بكتاب ، مثـل مـا لليـهود مـن كتـاب ، ومثـل مـا للنصارى من كتاب .

إن تحويل القبلة يؤكد هوية الأمة المسلمة ، ويبرز خصوصيتها داخل البيت الكبير ، ومن هنا جاءت آية الوسطية التى تليها مبتدئة بحرف العطف وكاف التشبيه لتؤكد أن الوسطية هى أيضًا بحث عن الخصوصية ، إنها ترتبط بتحويل القبلة نحو البيت الحرام ، وهى كذلك إضافة للأمة المسلمة داخل البيت الكبير ، إن ذرية إسماعيل عليه السلام بدءوا يحيون دين الحنفية ، وإن تجمعهم حول البيت الحرام يعنى إضافة جديد ة إلى طريق الأنبياء من ذرية إبراهيم الصالحين ، وهى إضافة واضحة فى وجهتها وقبلتها ، وهى كذلك واضحة فى رؤيتها ونظرتها الوسطية .

إن هذا لا يعنى التعصب وكراهية الأديان الأخرى ، لكنه يعنى بكل تأكيد الإضافة إلى الأديان السابقة وتكملة الطريق ، وهذا ما نصت عليه آية الوسطية ، وهى تبرز الغاية من الوسطية وتؤكد أنها غاية خلقية ، تحول المسلمين إلى شهداء على الناس ، أى شهود عدول يحتكم إليه الفرقاء ، ويجدون عندهم النموذج المتكامل ، ويصغون إلى حكمتهم ، ومن هنا كان التعبير بحرف الجر « على » فى قوله تعالى : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ ، لأن الشهادة هنا تتضمن كما يقول المفسرون ، الرقابة والإشراف على المتخاصمين ، خلال حكم عدل يصدر من جهة ثقة .

ثم يتداخل الأمران بعد ذلك ، ويأتى الحديث عنهما فى سياق واحد ، وإنه لكذلك ، لأن تحويل القبلة يعنى الخصوصية ، ولأن الوسطية تعنى الخصوصية أيضًا ، ولأنهما معًا يردان فى سياق واحد ، ويؤكد بروز هذا العنصر الجديد ، الذى بدأ يتصدى لشرف الأمانة وتجديد العهد بين إبراهيم وربه ، وهو عنصر يتمثل فى الأمة المسلمة ، التى تمتد بجذورها إلى الحنفية ، وتحافظ على دين إبراهيم وإسماعيل ، وتجدد ما اندثر ، ثم تضيف إليه ما يكمل المسيرة ، ويجعل البيت الكبير فى صورة أجمل وأجل . أو بعبارة أخرى فى صورة أكمل ، تجمع بين الجمال والجلال معًا ، وتضيف إليهما ما يحول البيت الكبير إلى نموذج ، تهتدى به الإنسانية فى طريقها الطويل ، وفى ملحمة الصراع الطبيعى بين الخير والشر .

وتستمر الآيات فى التأكيد على القبلة الجديدة خلال صيغ مختلفة ، تدعو الرسول إلى أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام ، وتدعو المسلمين أينما كانوا إلى

أن يولوا وجوههم شطر المسجد الحرام . وتكرر ذلك فى عبارات حاسمة لا تقبل المهادنة ، لأن الأمر ليس هو مجرد جهة مكانية ، ولكن هو الصراط المستقيم كما تقول الآية / ١٤٢ وهو الحق من ربهم كما تقول الآية / ١٤٤ . وهو العلم كما تقول الآية / ١٤٥ ، وهو الحقيقة التى يعرفها أهل الكتاب كما يعرفون أبناءهم كما تقول الآية / ١٤٦ ، وهو الحق من ربهم كما تقول الآية / ١٤٧ ، وإنه للحق من ربك كما تؤكد الآية / ١٤٩ ، وهو تمام النعمة كما تقول الآية / ١٥٠ .

إن هذا التأكيد بصيغ مختلفة ، يعنى أن الأمر ليس هو بمجرد تحويل القبلة فلله المشرق والمغرب ، ولكنه يعنى الحقيقة التى جاء التعبير عنها بصيغ مختلفة ولكنها قاطعة ، وهى حقيقة تعود إلى هوية الأمة المسلمة ، والتى أصبح لها قبلة خاصة بديلاً عن القبلة العامة ، وأصبح لها صفة خاصة هى صفة الوسطية التى تقدم النموذج والمثل الأعلى للفرقاء المتخاصمين . وأصبح لها أيضًا نبيها الذى يبعث من بنيها ويتلو عليهم كتابًا ، يقف بجانب التوراة والإنجيل ويجدد المسيرة ويضيف إليها ، وهنا نصل إلى الأمر الثالث الذى جاءت لتؤكده الآية / ١٥١ والتى بدأت بكاف التشبيه لتعنى بذلك أن الرسول عربى ، وبعث فى العرب ، وجاء فى العرب ، وكل هذا يؤكد خصوصية هذه الأمة ، وهى خصوصية تبنى ولا تهدم ، تؤلف ولا تفرق .

إن هذه الآية الكريمة رقم / ١٥١ ، وردت بصيغ مختلفة فى آيات أخرى انبثت خلال سور القرآن ، تصف العرب بأنهم أميون كما فى الآية / ٢ من سورة الجمعة ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ ، كما فى الآية / ١٥٧ من سورة الأعراف ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ ﴾ ، إن السياق القرآنى لاستخدام هذه الصفة لا يعنى الجهل والغفلة كما يفسر المعجم الوسيط دلالة هذه الكلمة فى معنى من معانيها اللغوية ، ولكنه يعنى الخصوصية والأصالة ، فالعرب أميون بمعنى أنهم ليس لديهم كتاب يقرءونه كما فسر الطبرى آية الجمعة ، والنبى أمى بمعنى انه لم يقرأ ما تركه أهل الكتاب ولا أساطير الأولين ، حتى ينقل عنهم . كما قالت الآية الكريمة ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

إن هذه الآية الأخيرة تؤكد معنى الأمية ، وتنفى مزاعم أهل الشرك بأن ما جاء به محمد هو من أساطير الأوليين أو انه منقول من أهل الكتاب فالنبى أمى ، لم يطالع

كتب السابقين ، ولم ينقل بخط يده عن الآخرين ، إن ما يتلوه هو وحى من عند اللّه وهو آيات بينات كما تذكر الآية التى تليها ، لها من الأصالة ما يجعلها تتميز عن الكتب المحرفة وعن المخطوطات المنقولة .

والأمر كذلك بالنسبة للعرب ، فقد كانوا أمة أمية ، ليس لهم كتاب يقرءونه ، مثل ما لليهود وما للنصارى من قبلهم ، وقد جاءهم القرآن الكريم يمنحهم وصفًا خاصًا ، لم يعودوا بعده يحسون بالانتقاص أمام اليهود أو النصارى ، الذين كانوا يفتخرون على العرب بأنهم من أهل الكتاب ، إن العرب بعد نزول القرآن الكريم أصبحوا أمة مميزة ، لهم كتاب مثل ما لليهود والنصارى ، وهو كتاب يقف بجوار التوراة والإنجيل ، وهو يعترف بهما ، وهو مثلهما يصدر من منبع واحد ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس منقولاً عنهما فالنبى أمى لم يكن يتلو كتب السابقين ، والعرب أميون لا يقرءون كتب الأولين ، فهم على جبلتهم الأولى كما جاء فى لسان العرب ، وهو يشرح الحديث الشريف « إنا أمة أمية لا تكتب ولا تحسب » وهذا يعنى أن صفة الأمية تعنى هنا الخصوصية والأصالة ، كما يعتبره سياق الآيات التى تتحدث عن قبلة ، وعن صفة الوسطية ، وعن رسول من العرب ، يجيئهم بكتاب فى لغة العرب ، هو حقًا كتاب يعلمهم الحكمة التى جاءت بها الديانات السابقة ، ولكنه فى الوقت نفسه ليس منقولاً عن الكتب السابقة ، وليس صورة طبق الأصل من التوراة والإنجيل ، إنه من نبع واحد ، ولكنه يتميز بالأصالة والخصوصية ما ينفى عنه صفة التقليد والمحاكاة ، وما يرد التهمة التى قالها أهل الشرك بأنه من أساطير الأولين ، أو بأنه من تأثير الأحبار والرهبان ، وقد تم هذا خلال استخدام كاف التشبيه مع كل إضافة جديدة ، لتفيد بأن المقام واحد ، وأن السياق هو سياق البحث عن الخصوصية ، إن التوجه شطر المسجد الحرام إيذان بظهور أمة جديدة تتقدم لتحمل دورها التاريخى ، وكذلك صفة الوسطية ، وكذلك مجئ رسول من العرب يبعث فيهم ومن أنفسهم ، أى أن كل هذا يتشابه فى أنه يعنى ظهور أمة جديدة ، تتصدى لدورها المنتظر وتصحح المسيرة التى انحرفت ، وتهدى الجميع إلى الصراط المستقيم .

* * *

إن كل هذا يؤدى إلى مفهوم متكامل من الخصوصية ، يجمع بين العام والخاص ،

وبين الأجداد والأحفاد ، فلا انغلاق على الخاص ، وفى الوقت نفسه لا إهدار للخاص ، وبذلك تختفى المعارك الوهمية بين الثنائيات ، ويلتقى الجميع على ارض واحدة .

إن الخصوصية تثير الأعداء ، لأنهم يدركون فى داخلهم أنها قوة يجب التصدى لها ووأدها فى المهد .

والخصوصية أيضًا لابد أن تساندها قوة ، حتى تستطيع أن تجابه الأعداء ، وأن تدافع عن وجودها .

تلك هى ملحمة الصراع بين الخير والشر ، وهى ملحمة أزلية وأبدية ، ولكن نتائجها معروفة وحتمية ، تؤدى فى النهاية إلى انتصار الخير على الشر ، مهما كان تكاتف الأعداء ، وأدلهم على الظلام .

وكل هذه المعانى جاءت فى سياق الآيات التى تعرضت لتحويل القبلة . فمنذ البداية تتحدث الآية عن من تسميهم « السفهاء من الناس » ، الذين أخذوا يشككون فى الوجهة الجديدة ، ويثيرون الأقاويل والأراجيف . ويذكر المفسرون أن اليهود اغتمت لهذا الأمر ، وأخذوا يتساءلون : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . فأينما تولوا فثم وجه لله ، ولكن لأنهم أحسوا فى داخلهم أن هذا الفرع الجديد من ذرية إسماعيل قد بدأ يتبلور ، وأن هذا يؤذن بأنه سيتقدم لكى يؤدى دوره الذى سيؤديه على مسرح التاريخ ، ويحافظ على أمانة الكلمة بين إبراهيم وربه التى أساء إليها الأحبار ممن حرفوا الكلم عن مواضعه .

وتأتى نهاية الآيات فتذكر الأمة المسلمة بالقوة ، التى لابد منها لمواجهة هؤلاء الأعداء ، إن الآية / ١٥٠ تحذر من الذين ظلموا ، وتدعوا إلى مجابهتهم ومقاومة الخوف منهم فالأمة الإسلامية مؤيدة بقوة الله وبتمام النعمة ، أما الآيات من ١٥٣ وحتى ١٥٧ فهى تدعو إلى الصبر والجهاد والوقوف أمام التحديات .

وبين البداية والنهاية ، تشير الآيات إلى ملحمة الصراع بين الخير والشر ، تقول الآية / ١٤٥ : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

﴿ إنك إذا لمن الظالمين ﴾ وتقول الآية / ١٤٨ : ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

إن كل هذا لا يعنى فى تحليله استسلام المسلم لطبيعة الصراع بين الخير والشر ، وأن يكف عن الدعوة لانتصار الخير ، وأنه لا يستطيع أن يغير فى نواميس الكون ، فلكل وجهة هو موليها ، ولكنه يعنى التبصير بطبيعة المعركة ، والتنبيه لمخاطرها ، والوعى بتركيبة العدو ، وبعد ذلك لا يستسلم ولا يتواكل ، فقط عليه أن يفهم ، وأن يعد العدة بعد هذا الفهم ، فالآية / ١٤٥ تعقب على طبيعة الصراع ، وتأمر النبى بألا يتبع أهواءهم بعد الذى جاءه بالعلم ، والآية / ١٤٨ تحث المسلمين على أن يستبقوا فى الخيرات ، وأن يبذلوا جهدهم ما استطاعوا ، فهم مسئولون أمام الله صاحب القدرة والعظمة .

حدود الوسطية
بين أهل الأعراف وأهل النفاق

تختلط الوسطية بمشتبهات ليست منها ، وإن كان بعض المتسرعين يحسبونها عليها .

والوسطية بنوع خاص تتداخل مع مصطلحين يتشابهان معها فى الظاهر وإن كانا يختلفان عنها فى الجوهر ، وهما التوفيقية والتلفيقية .

ومن أجل هذا التشابه فى الظاهر خلط كثير من المتسرعين بين الوسطية وهذين المصطلحين ، ومن أجل الاختلاف فى الجوهر كان لزامًا علينا أن نفصل الحديث عن التوفيقية مرة ، وعن التلفيقية مرة أخرى ، حتى نتكشف فى النهاية أن هذين المصطلحين يمثلان فى جوهرهما انحرافًا عن الوسطية لا يحسب على حدودها المحددة .

التوفيقية هى مراعاة الشيئين دون الوصول إلى شيء ثالث .

وقد سيطرت هذه التوفيقية على مفكرى القرن التاسع عشر فى العالم العربى ، الذين رأوا حضارة أوروبا متفوقة ، لخصها لهم الطهطاوى على صفحات كتابه « تخليص الإبريز » ، وحققها لهم على مبارك فى صورة واقعية - رأوا هذه الحضارة متفوقة لا يستطيعون أن يتجاهلوها . وفى نفسه لا يستطيعون أن يتخلصوا جملة واحدة من تراثهم القديم ، فاصطنعوا صيغة توفيقية ، تتيح التجاور بين الشيئين ، كما هما يتجاوران على أرض الواقع ، فالأزهر يتجاور مع الجامعة المصرية ، والأحياء الشعبية تتجاور مع الأحياء الإفرنجية .

حاولت التوفيقية أن تقوم بعملية تصالح بين شيئين ، هما بطبيعتهما متصارعان ، ولا أقول متعارضان .

فالحضارة الشرقية الإسلامية العربية ، التى تشكل الخلفية التاريخية لعلماء القرن التاسع عشر ، هى حضارة دين + موقف خارجى فى الحياة ، أو بعبارة أخرى : هى ممارسة للحياة تهديها طقوس دينية .

أما الحضارة الغربية فهى حضارة عقل + صناعة إنسانية ، أو بعبارة أخرى : عقل بشرى يقوم بعملية الاستنباط ، ويد تحول الاستنباط إلى واقع .

والحضارتان تتصارعان ، ونقطة البدء عند كل منهما مختلفة ، وهما فى الوقت نفسه لا تتعارضان . فكل منهما يمكن أن تفيد من الأخرى ، إن هناك اتصالاً بين الحضارتين بطريقة ما ، ولكن لا يوجد بينهما تواصل ، بمعنى أن كل حضارة يمكن أن تتحاور مع الأخرى ، لكن لا تصل إلى مرحلة اللقاء ، التى تجعل حضارتها تذوب فى خصائص الحضارة الأخرى .

وكانت النتيجة لهذا الصراع بين الشيئين المتجاورين ، أن انتهت توفيقية القرن التاسع عشر إلى انتصار الغالب ، ممثلاً فى النموذج الأوروبى .

نقطة البدء إذن التى ركز عليها علماء القرن التاسع عشر ، والتى حاولت أن تقيم تواصلاً بين شيئين ، هما بطبيعتهما لا يقبلان هذا التواصل - نقطة البدء هذه فى ظنى خاطئة .

والنقطة الصحيحة هى التى أشار إليها الأفغانى ، حين قاوم فكرة التوفيقية ، واستيراد النظريات التربوية من أوروبا ، ومحاولة غرسها فى البيئة الشرقية ، ورأى أن إنشاء المدارس على النسق الأوروبى فى مصر وتركيا مثلاً . أمر يخلو من الفائدة التربوية ، والأفضل أن نبدأ من واقع الحضارة العربية الإسلامية .

إن البداية من أرض الواقع ، سوف تحل نصف المشكلة على أقل تقدير ، وهى مشكلة الماضى ، فالماضى ليس شيئًا معزولاً ، بل هو الحال الذى انتهى إليه الحاضر ، وهو موجود فى الحاضر ، لا يمكن فصله والاستغناء عنه ، والبشر الذين يتحركون فوق أرض الواقع ، ليسوا مجرد آلات ميكانيكية ، ركبت أجزاؤها ، ثم أحكمت مساميرها ، وقيل لها سيرى ، فسارت . إن البشر هم نتاج الآباء ، يحملون الخصائص الوراثية والخبرة التاريخية .

إن التاريخ لا يعرف التقسيمات الزمنية ، الماضى والحاضر ، لأنه صيرورة مستمرة ، كتيار النهر ، والحاضر هو استمرار الماضى ، أما المستقبل فلم يدخل بعد فى مجال التاريخ . إن التقسيمات الزمنية هى من صنع البشر تسهيلاً لإدراك الخبرة

البشرية ، والتساؤل عن أهمية الماضى ، هو تساؤل بلا معنى لا يعرفه التاريخ .

بقى أن نضيف إلى نقطة البدء التى اقترحها الأفغانى ، ذلك المنهج الذى اتبعه ابن القيم الجوزية ، وهو يتحدث عن الوسطية التى تجرى وراء الحق هنا وهناك ، فتضيفه إليها ، وتتحول إلى نموذج أو « شهيد » يقتدى به الناس .

نقطة البدء التى اقترحها الأفغانى ، وذلك المنهج الذى تصوره ابن قيم الجوزية ، يمكن أن يؤديا فى النهاية إلى مرحلة الوسطية .

وهى مرحلة يتجاور فيها الماضى والحاضر ، أو التراث والمعاصرة ، أو القديم والجديد ، ثم لا يقف الأمر عند حدود التجاور ، بل يتعداه إلى شىء ثالث ، يسميه ابن قيم الجوزية مقام الكمال ، وهو مقام ثالث ، يجمع بين مقامى الجمال والجلال ، ويختلف عنهما فى الوقت نفسه .

إن مقام الوسطية ، أو مقام الكمال ، شىء ثالث ، يأخذ الشيئين معًا ويختلف عنهما . لم يعد الماضى وحده ، أو الحاضر وحده ، أو هما متجاوران ، لم يعد ذلك يكفى ، بل أصبح الأمر يتطلب مقامًا ، يجاور بين الاثنين من أجل صيغة ثالثة ، يحتفظ الاثنان فيهما بخصائصهما ، ولا يندمجان ، ولكن يحدث بينهما ارتباط من نوع دقيق . وهو مقام غير مقام التوفيقية ، الذى يكتفى بالوقوف عند الشيئين متجاورين ، ولا يمد عينيه إلى أبعد من ذلك .

والتوفيقية هى شىء غير التلفيقية ، رغم اشتراكهما فى معظم الحروف ، إلا أنه من نوع الاشتراك الذى يتوارد فى اللغة العربية ، ولا يفصل بين الشىء وضده إلا عن طريق حرف أو حركة ، من مثل السكينة والسكون ، والتوكل والتواكل ، والهَون والهُون ، وغير ذلك مما سبق أن ذكرنا فى فصل « اللغة » من الكتاب الثانى .

التوفيقية تراعى الشيئين ، وإن كانت لم تصل بعد إلى الموقف الثالث . أما التلفيقية فهى تراعى شيئًا ولا تصدر عن موقف . الأولى صدق وإن كان قاصرًا ، أما الأخرى فهى كذب وجبن ، والعلاقة بينهما علاقة غيرية ، رغم اشتراكهما فى معظم الحروف .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإن هذا يؤدى إلى أن تكون التلفيقية غير الوسطية بطبيعة

الحال ، ولن تكون على أى حال ضد الوسطية ، هى غيرها لأنها ليست موقفًا ، وهى ليست ضدها لأن الضد أحيانًا يتبنى موقفًا وإن كان خاطئًا ، هناك فرق كبير بين اللاشىء وضد الشىء .

غير الوسطية هى ضد الوسطية ، وإذا كانت الوسطية تراعى الجانبين فإن غير الوسطية تراعى جانبًا واحدًا وتهمل الآخر . أما التلفيقية فهى لا تراعى شيئًا على الإطلاق لأنها ليست موقفًا .

وهنا تصبح التلفيقية مرادفة لصفة النفاق ، وهى الصفة التى وقفنا عندها فى فصل « التاريخ » من الكتاب الأول ، ورأيناها انحرافًا للوسطية يسهل على العربى الوقوع فيه ، وخاصة فى عصر الاستبداد . فالعربى بحكم الطبيعة والتاريخ مهيأ لأن يعيش الحالتين معًا ، تدفعه الطبيعية إلى أن يعيش الحالتين بتلقائية ، ويفرض عليه التاريخ أن يوازن بين الحالتين بوعى . ولكن ظروفًا خارجية مستبدة قد تحرمه من التلقائية أو من الوعى ، وتفرض عليه حالة صناعية ، فيبدى شيئًا ويخفى شيئًا ، هو لا يعتقد فيما يبديه ، ولا يستطيع أن يدافع عما يخفيه ، فيفقد الحالتين معًا وإن خيل إليه أنه يجمع بينهما .

وسمى النفاق كذلك تشبيهًا له بنافقاء اليربوع ، وهو مدخل وهمى إلى الجحر ، يصطنعه اليربوع خوفًا من مجابهة الخارج ، وهو غير الدخل الحقيقى الذى لا يهتدى إليه أحد . اليربوع هنا لا شىء . فالمدخل الحقيقى غير واضح ، والمدخل الوهمى مضلل . ويقبع اليربوع فى جحره يعلك مشاعره الذاتية .

إن استعارة أحد الأمثلة من علم الكلام قد يوضح كل هذه التجريدات . فأهل الوسط يجمعون بين الجبر والاختيار فى صيغة ثالثة شرحها أهل السنة ، والجبرية يركزون على جانب . والمعتزلة يركزون على الجانب الآخر . وكل من هذه الحالات الثلاث يتبنى موقفًا ، حتى وإن كان قاصرًا على الحالتين الأخيرتين . أما المنافق الذى يوزع نفسه على جميع الأدوار ، فهو فى النهاية لا يقبض على شىء ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ . وأصبح نوره كلا نور وخير منه الظلمات .

كان لابد من هذا الشرح ، حتى يمكن التمييز بين النور ووهم النور ، بين الصحيح والزائف ، بين ما هو حقيقة وما هو انحراف عن الحقيقة . ودون هذا التمييز يمكن أن تختلط الأوراق ، وأن يحسب الوهم فى عداد الحقيقة .

وقد وقع كثير من المعاصرين فى هذا الوهم ، واختلطت عندهم الأوراق ، وحسبوا الانحراف من خصائص المذهب ، ورادفوا بين التوفيقية والتلفيقية والوسطية ، فهاجموا الجميع دون التفريق بين الصحيح والزائف ، وبين النور ووهم النور .

محمود أمين العالم فى كتابه « الوعى والوعى الزائف » يهاجم التوفيقية ، ولا يفصل بينها وبين الوسطية ، فكلاهما « مسك العصا من الوسط » على حد قوله ، وكلاهما نفاق يعرقل المجتمع فى مسيرته الاقتصادية والسياسية والفكرية .

والدكتور فؤاد زكريا فى مقال له فى مجلة « القاهرة » (أكتوبر سنة ١٩٨٨) ، يعتبر الوسطية ومرادفاتها نوعًا من المرض النفسى ، يجعل صاحبه يخشى من تحديد موقفه .

والدكتور زكى نجيب محمود فى كتابه « تجديد الفكر العربى » يتابع بعض الانحرافات عن الوسطية ويراها « بذورًا يجب أن تقلع من جذورها إذا أردنا للمواطن العربى أن يولد من جديد » على حد قوله .

والدكتور جمال حمدان فى كتابه « شخصية مصر » وتحت عنوان « مأساة الحل الوسط » ، يحدد هذه المأساة فى تلك المواقف التى لا تنبئ عن حسم ، وتسئ إلى جوهر الشخصية المصرية .

إن الوهم الذى وقع فيه هؤلاء المفكرون وغيرهم ، إنما أتى من عدم تحديد الألفاظ ، فترادفت عندهم الوسطية والتوفيقية والتلفيقية ، واعتبروا الجميع نفاقًا وازدواجية وإمساكًا للعصا من الوسط ، واختلط عندهم المذهب بانحرافه ، وحسبوا الانحراف على المذهب ، فهاجموا الاثنين معًا ودون تفريق .

* * *

جعل القرآن الكريم للوسطية حدودًا ، ومنذ أن بدأ يحييها فى قلوب المسلمين ويلفت نظرهم إلى الظواهر الطبيعية حولهم ، وما تحويه من كل زوج بهيج ، أخذ يتابع

هذه الوسطية ، ويجعلها صفة للأمة الإسلامية ويرصد تطبيقاتها خلال سوره وآياته ، وحتى انقطع الوحى الكريم ، ولحق الرسول بالرفيق الأعلى .

إن الوسطية هى الصراط المستقيم كما أشارت سورة الفاتحة ، والصراط هو الجمع بين الأمرين فى مقام الكمال ، وهو يختلف عن الأمرين وإن كان يجمع بينهما ، وهو لا يكتفى بمجرد الجمع بينهما ، ولكنه يضيف إليهما ومن خلال اجتماعهما ، موقفًا أو مقامًا جديدًا ، يمثل خصوصية الأمة الإسلامية .

وهذا المقام حرج ودقيق ، فقد يلتبس بالتوفيقية مرة ، وقد يلتبس بالتلفيقية مرة أخرى . ومن هنا فإن القبض على الصراط يحتاج إلى هداية وإلى نور يقذفه اللّه فى القلب ، ويظل المسلم طوال حياته متعلقًا باللّه يطلب منه الاستعانة ، ويخشى الانحراف عن جادة الطريق ، إلى واحدة من المشتبهات التى تتربص به على جانبى الطريق . فقد يخدع المرء عن طريقه ، وقد يخيل إليه أنه على الصراط المستقيم ، وهو فى الحقيقة على وهم من الوسطية قد اختلطت عليه الأمور ، وأصبح يجمع بين الأمرين ليس عن طريق الوسطية وليس عن طريق مقام الكمال ، ولكنه يجمع بينهما بانحراف عن جادة الوسطية ، ويقع فى وهم التوفيقية مرة وفى وهم التلفيقية مرة أخرى .

* * *

والقرآن الكريم فى لفتة إعجازية بليغة ، ينبه إلى هاتين المخوفتين ، ويحذر معتنقيه من الوقوع تحت دائرة واحدة منهما ، حتى لا يقع بالمشتبهات وفى انحرافات الوسطية التى يتبعها من هم فى قلوبهم زيغ . كما أشارت إلى ذلك سورة آل عمران وهى تتحدث عن الآيات المشتبهات .

حقًا ، إن القرآن الكريم قد حدد الوسطية خلال آياته وسوره ، وقد أحياها فى قلوب المسلمين ، وتحولت مذهبًا وتطبيقًا وسلوكًا ، إلى شىء قوى ، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، كما تشير إلى ذلك سورة الفتح ، وهى تتحدث عن المسلمين وهم فى مقام الكمال ، يقدمون لكل فئة ما ينقصها ، وما تتطلع إليه عند الفئة الأخرى .

حقًا كل ذلك ، وحقًا أن الصحابة فى عصر النبى ﷺ كانوا بعيدين عن التوفيقية

وعن التلفيقية ، معتنقين الوسطية منهجًا وتطبيقًا . ولكن القرآن فى لفتة إعجازية يهتك حجب الغيب ، ويحذر المسلمين من الوقوع فى المشتبهات ، أو فى الانحرافات التى تتم تحت وهم الوسطية ، مرة باسم التوفيقية ، وأخرى باسم التلفيقية .

والتوفيقية تجتمع مع التلفيقية فى شىء واحد ولكن مع فارق كبير فى الجوهر . فكلتاهما تجمعان بين أمرين دون موقف وخصوصية ، ولكن التوفيقية تصدر عن حسن نية ، بينما التلفيقية تصدر عن سوء نية .

وقد تمثلت التوفيقية فى علماء القرن التاسع عشر ، ممن حاولوا إصلاح حال الأمة الإسلامية ، عن طريق التوفيق بين التراث والمعاصرة ، أو بين القديم والجديد ، أو بين الشرق والغرب ، أو بين الإسلام وأوروبا ، وغير ذلك من ثنائيات تحاول فى تحليلها النهائى التوفيق بين حضارتين مختلفتين . إن هذا كان يصدر عن حسن نية تهدف إلى الإصلاح ، وتقديم إنجازات الغرب فى ثوب عربى إسلامى . وقد اجتهد أصحابها ، وقدموا ما يستطيعونه فى ظل ملابستهم التاريخية ، وما أظن إن اللـه عز وجل يضيع اجتهاداتهم سدى .

أما التلفيقية فهى لا تتبنى موقفًا ولا تهدف إلى إصلاح . إنها تمسك العصا من الوسط وتتلون مع كل الاتجاهات ، لا يهمها إصلاح ولا تراث ولا معاصرة ، بقدر ما يهمها النفع العلمى ، وهو ما نراه يصدق على الكثيرين حولنا ، ممن يجرون مع مصالحهم ، ويغيرون أثوابهم ، مرة مع العلمانية ، ومرة مع الماركسية ، بحسب الموجة السائدة وهبوب الرياح . وغير مستبعد لو أن التيار الإسلامى قفز على السلطة أن يحملوا السبحة ، ويلبسوا العمة ، ويتمتموا بالأدعية المأثورة ، وينتقلوا من اللادينية إلى الدينية . لا يهمهم التلفيق بين المتناقضات واختلاط المواقف ، ولا إمساك العصا من الوسط ، بقدر ما يهمهم انتهاز الفرص والجرى وراء المنافع البراقة .

* * *

وكان إعجازًا من القرآن الكريم أن يشير إلى هذه الانحرافات ، التى لم تحدث بين الصحابة ، ممن يمثلون النماذج الكاملة للوسطية الإسلامية ، ولكن حدثت بالفعل فى فترة ضعف المسلمين وافتقادهم الموقف ، وضياع الهوية

والخصوصية . فهو حديث من القرآن عن الغيب ومستقبل المذهب ، وهو فى جـوف التاريخ مرة يسمو وأخرى يكبو .

ولكن القرآن لم يستخدم مصطلحات مثل التوفيقية والتلفيقية للدلالـة علـى هـذه الانحرافات . ولكنه استخدم مفردات أخرى تتسق مـع منهجـه القرآنـى ، فتحـدث عـن أهل الأعراف مرة ، وتحدث عن أهل النفاق مرة أخرى .

أما عن أهل الأعراف فهناك سورة كاملـة تحمـل هـذا الاسـم ، وردت فيـها هـذه الكلمة مرتين ، وهى تتحدث عن قوم لا هم مـن أهـل الجنـة ولا هـم مـن أهـل النـار ، ينتظرون مصيرهم على جبل الأعراف ، وهو جبل حاجز بين الجنة والنار ، ينظرون إلى أهل الجنة فيطمعون أن يكونوا معهم ، وينظرون تلقاء أصحاب النار فيدعـون اللـه ألا يكونوا معهم . وهم على أى حال حسنو النية ، وقفوا فى منتصف الطريق ، ولا هم مـن أصحاب الجنة ولا هـم مـن أصحـاب النـار ، وعسـى اللـه أن يتغمدهـم برحمتـه وأن يدخلهم جنته .

أما أهل النفـاق فيصـدرون عـن خبـث وسـوء نيـة ، إنـهم لا يخلصـون لشـىء ، ويحاولون أن يرضوا كل الأطراف ، وأن يمسكوا بالعصا مـن الوسـط ، وأن يجمعـوا بين مختلف التيارات ، إن فى قلوبهم مرضًا يخادعون الله وهو خادعهم ، يظنـون أنـهم على شىء وما هم إلا خشب مسندة كما وصفهم الله عز وجل فى سـورة تحمـل اسـم « المنافقون » .

وقد كشفت سورة الحديد موقفهم ، وأوقعت عليهم العقاب من جنـس أعمالـهم ، فهم يعيشون فى وهم ، ويعذبهم الله يوم القيامة من خلال وهمهم ، يلتمسون النور مـن المؤمنين ، فيضرب بينهم بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، والمفسـرون حين يتحدثون عن المنافقين فى سورة الحديـد يحيلـون إلـى سـورة الأعـراف . يقـول النسفى : « فضرب بينهم بسور .... بحائط حائل بين شق الجنـة وشـق النـار ، قيـل هـو الأعراف » .

ولكن هذه المشابهة التى لاحظها النسفى بين أهل الأعراف وأهل النفاق هـى فـى الظاهر فقط ، فما أبعد الفرق بين الأمرين ، وما أبعد المسافة بيـن حسـن النيـة وسـوء

النية ، إن أهل الأعراف قد يتدراكهم الله برحمته ويدخلهم جنته ويغفر لهم خطأهم وهو الغفور الرحيم ، أما أهل النفاق فضرب بينهم وبين المؤمنين بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب .

وأهل التوفيقية كانوا أيضًا حسنوا النية ، حينما ظنوا أنه يمكنه الجمع بين الشرق والغرب دون أن يؤثر ذلك على خصوصية أهل الشرق ، لقد اجتهدوا وما اظن أن اجتهادهم سوف يضيع سدى .

أما أهل التلفيقية فهم مصيبة تعانى منها المجتمعات الإسلامية ، ويخدع بهم النشء ، ولا يدركون أن نورهم زيف وخداع ، وأن أحاديثهم وهم وتضليل . وما أظن إلا أن سورًا من حديد يضرب دونهم ويحول بينهم وبين رحمة الله .

إن هذا التفسير أحسبه فتحًا قد قذفه الله فى قلبى ، وهو يكشف عن إعجاز القرآن ، وكأنه يتحدث عن أمراض الساعة التى تحيط بالمجتمع الإسلامى . ولعل هذا التفسير لأهل الأعراف وربطهم بالتوفيقية ، يحث المسلمين على البحث عن الخصوصية ، والتخلص من مرض التشبث بالقوالب الأوروبية ، ومحاولة التوفيق بينها وبين واقع حضارتهم الخاصة ، فيوقع هذا فى وهم الإصلاح ، ويضلل بعيدًا عن الطريق الصحيح ، طريق الخصوصية والبحث عن الهوية . وإذا كان اللـه يغفر لأهل التوفيقية يوم القيامة ، فإن جزاء أصحاب الوسطية أكبر من ذلك بكثير .

سورة الرعد

والوجه الآخر للصحراء

تبدأ سورة الرعد ، فتوجه الأنظار نحو مظاهر الطبيعة المتقابلة . إنها لا تشير إلى الشىء وحده ، ولكنها تشير إلى الشىء وما يقابله ، فرفع فى مقابل مد ، والسموات فى مقابل الأرض ، والشمس فى مقابل القمر ، والليل فى مقابل النهار ، والصنوان فى مقابل غير الصنوان ، والسيئة فى مقابل الحسنة ، والغيب فى مقابل الشهادة ، وأسر فى مقابل جهر ، ومستخف فى مقابل سارب ، ويداه فى مقابل خلفه ، والبرد فى مقابل الرعد ، والخوف فى مقابل الطمع ، والسحاب فى مقابل الصواعق ، وغير ذلك من متقابلات ، تقدم الأطراف - بمعنى الأزواج - متجاورة ومتقابلة .

* * *

وكل هذا يعنى أن فكرة الزوجية ، تنبث فى السورة منذ البداية ، وتظل تصاحبها حتى النهاية .

وتشير الآية رقم (٣) من السورة الكريمة إلى فكرة الزوجية ، التى هى جزء من تركيبة الظواهر الطبيعية ، وسنة من سنن الله فى خلقه ، فتقول فيما تقول : ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ .

وقد التفت بعض المفسرين إلى فكرة الزوجية ، بمعنى الشىء وما يقابله وأحيانًا ما يناقضه ، فى الآية رقم (٤) من هذه السورة ، والتى تقول : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ويلاحظ الرازى فى تفسيره لهذه الآية فكرة الزوجية فى الظواهر الطبيعية ، فيقول : « إن الحبة إذا وضعت فى الأرض ، وأثرت فيها نداوة الأرض ، ربت وكبرت ، وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها ، فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة فى الهواء ، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة فى أسفل الأرض ، وهذا من العجائب . لأن طبيعة تلك

الحبة واحدة ، وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد . ثم إنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء ، ومن الجانب الأسفل منه جرم غائص فى الأرض . ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحد طبيعتان متضادتان ، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم .... وأيضًا قد يحدث فى الثمرة الواحدة الطباع المختلفة ، فالأترج قشره حار يابس ، ولحمه حار رطب . وحماطه بارد يابس ، وبذره حار يابس ، ونوره حار يابس » .

* * *

إن فكرة الزوجية – بمعنى المقابلة – لا تقف عند حد الكلمة الواحدة ، ولا عند حد الكلمتين ، المعطوف والمعطوف عليه . ولكنها أيضًا تنبث فى الصورة الشاملة ، التى تجمع ما بين الشىء وما يقابله . وأحيانًا ما يناقضه ، كما فى الآية الكريمة : ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن السيل . وفجأة تقدح فى الذهن صورة النار ، لكى تصبح الصورة شاملة تجمع بين الماء والنار .

إن هذا التلازم بين الماء والنار يرد فى سور كثيرة من القرآن الكريم ، كما فى سورة البقرة : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ ، وكما فى سورة يس : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ ، وغير ذلك من آيات تتوارد فيها صورة الماء أو السيل أو الصيب مع صورة النار أو البرق أو الشجر الأخضر ، لكى تصبح اللوحة كاملة تجمع بين الشىء وما يناقضه .

* * *

والصحراء فى مظهرها الخارجى عنيفة وقاسية . أعاصير ، ورمال ، وقيلولة ، وحيوانات مفترسة ، وصراع وضراوة . وقد وقف كثير من المستشرقين عند هذا المظهر

الخارجى ، واتهموا العربى بالعنف والقسوة والضراوة والوحشية ، وسحبوا ذلك على الإسلام ، فوصفوه بأنه دين قاس ، صورة طبق الأصل للظواهر الطبيعية حوله .

وهى نظرة قاصرة . فهناك وجه آخر للصحراء ، لا يكتشفه إلا صاحب الفطرة السليمة ، والنظرة الموضوعية المعتدلة ، التى لم يلوثها القصور ولا سوء النية . فالأديان السماوية الثلاثة ، التى اهتدت بها الإنسانية ، ظهرت فى بطن الصحراء أو على مشارفها . والعربى يحمل قلبًا رقيقًا تعكسه الأشعار العذرية والأغنيات العذبة . والإسلام ليس هو جزءًا من الظواهر الطبيعية حوله ، بل يتحكم فيها ، ويسمو بها ، ويخلع عليها رحمته ، التى تشمل كل الموجودات ، من إنس وجن وحيوان وطير ونبات .

والقرآن الكريم يصور الوجهين المتقابلين للصحراء : الوجه الأول الذى يعكس الصورة الخارجية للصحراء ، ويتحدث عن مظاهرها العنيفة . والوجه الآخر للصحراء بشفافيتها ، وذلك هو الجانب الإلهى والروحى للقرآن الكريم ، وهو المعبر عن الجزء المتجاوز للصحراء . إن الصحراء ليست هى الحجارة والكتل والجبال فحسب ، إن هذه الجبال يمكن أن تخشع ، ويمكن إن يتجلى الله على الجبال (الأعراف ١٤٣) . ويمكن أن ينادى الله أنبياءه عند النار المشتعلة فى الوادى المقدس (طه ١٠ - ٦٢) . ويمكن للرعد أن يسبح بحمد الله وأن يسجد له من فى السموات والأرض (الرعد ١٣ - ١٥) . وهذا الجانب فى القرآن الكريم هو الذى أحس به المؤمنون فوجلت قلوبهم بذكر الله واطمأنت قلوبهم وإزدادوا إيمانًا . وفاضت أعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق (المائدة ٨٢) . وهذا الجانب الإلهى لم يستطع أن يكتشفه المشركون ، فقد ضرب بينهم وبينه بحجاب . وجعلت على قلوبهم أكنة وفى آذانهم وقر (فصلت ٥) . وغاية ما استطاعوا أن يدركوه هو أنه سحر أو شعر أو أساطير . هم قالوا ذلك من منطلق إحساسهم بأنه ليس من الأمور العادية ، وبأن له تأثيرًا على القلوب ، وله حلاوة ، وعليه طلاوة ، وأنه يستطيع « أن يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته » . كما قال الوليد بن المغيرة ، إنه يقرون - ضمنيًا - بأنه يتجاوز الأمور العادية ، ولم تصل مداركهم إلا إلى الشعر ، وغاب عنهم هذا الجانب الإلهى ، الذى يمثل الجزء المتجاوز للمظهر

الخارجي من الصحراء . كان المشرك يحس بتأثيره ، ويعترف فـي دخيلـة نفسـه بذلـك ولكنه كان يقاوم . كان أشد قسوة من الحجارة لأن من الحجارة ما يلين ، وأشد بـوارًا من الأرض الميتة لأنها قد تحيا . وكان حين يسمعه يلغو فيـه ، أو يصفـق ، أو يصـدر مكاء ، أو ينصرف . كان يقاوم حتى لا يتأثر . وإنه ليحمل فـي مقاومتـه الدليـل علـى قوته وتسلله إلى القلوب .

حاول مسيلمة أن يقلد القرآن الكريم في مثـل قولـه : (ألـم تـر كيـف فعـل ربـك بالحبلى . أخرج منها نسمة تسعى . من بين صفا وحشى) . (والليل الأطخـم . والذئـب الأدلم . والجزع الأزلم . ما تناهكت أسيد من محرم) . (ضفدع بنت ضفدعين . نقى مـا تنقين . أعلاك في الماء وأسفلك فـي الطيـن . لا الشـارب تمنعيـن . ولا المـاء تكدريـن) . وحاول غيره أمثال ذلك ، ولكنهم جميعًا فشلوا ، لا لنقـص فـي البلاغـة ولا القـدرات الذهنية ، ولكن لأنهم كان ينقصهم ذلك الجانب الإلهي ، الـذي تنبـه إليـه أبـو بكـر ، وقال معلقًا على كلام مسيلمة : « ويحكم إن هذا لم يخرج عن آل » ، أي عن ربوبية .

* * *

وتشير سورة الرعد كذلك إلى لغـة خفيـة وراء الظواهـر الطبيعيـة . فـالبرق يثـير الخوف والطمع ، والرعد يسبح بحمـد اللـه ، وجميـع الكائنـات تسـجد للـه ، حتـى الظلال تخضع له كل غدو وآصال . إن كل ذلك يعني أن الوجود ليس خلوًا أو أصمًا ، بل هو يحمل لغة تنتزع الإنسان من واقعه المادي الصلب ، وتربطه بقـوة عليـا ، تحيـل الفوضى إلى نظام ، والعنف إلى خضوع واستسلام ، والسلوك إلى قيم ومثال .

وهذه اللغة تبعث اليقين والسكينة ، وتمـيز الإنسـان عـن الكائنـات حولـه . فـهو صاحب رسالة تحميه من العبثية والأمراض النفسية ، هي بذلك تختلف عن لغـة فرويـد ، التي تفسر لغة الكائنات حوله من منظور جنسي . فهديل الحمام نداء جنسي ، وطنيـن النحل شبق للقاح ، نقيق الضفادع دعوة للغريزة ، حتى علاقة البنت بأبيـها ، أو علاقـة الابن بأمه ، لها تفسيرات جنسية ، تعـود إلـى عقـدة أديـب وأليكـترا ، وبذلـك امتـلأ الكون بالعقد والأمراض النفسية .

تنبث صفة الزوجية ، بمعنى الشيء وما يقابلـه ، فـي سـورة الرعـد . فـي الكلمـة

الواحدة ، وفى الكلمة وما يعطف عليها ، وفى السورة الكاملة ، وفيما هو وراء الظواهر الكونية من وجه آخر ، يقابل هذه المظاهر ويكملها .

والقرآن الكريم إذ يلفت النظر إلى التقابل فى الظواهر الطبيعية ، إنما يهدف إلى التنبيه إلى خالق هذه الظواهر ، وإلى القوة العليا التى تتجاوز هذه المرئيات . فالله خلق الزوجين ليكون فى ذلك آيات لقوم يتفكرون . وجعل فى الأرض قطعًا متجاورات آيات لقوم يعقلون . وسخر الشمس والقمر والليل والنهار آيات لقوم يوقنون . والتلازم بين الماء والنار فى سورة واحدة إنما هو من باب الأمثال التى يضربها الله ، دلالة على الواحد القهار . أما سائر الظواهر الطبيعية الأخرى فهى تسجد لله طوعًا أو كرهًا .

وكل هذا يعنى أن فكرة الوسطية ، بمعنى الزوجية ، إنما تنتمى إلى تراث دينى ، لا ينظر إلى الحياة الدنيا ويكتفى بها وحدها ، وإنما ينظر إلى حياة أخرى تكملها . ولا يركز على المادة فحسب . وإنما يضيف إليها المثال أيضًا . ولا يقف عند العقل البشرى وحده ، وإنما يضيف إليه قوة أخرى تكمله ، وتحفظه من التطرف ومن النظرة الأحادية .

وكل هذا يجعلها تختلف عن أمرين ، تتشابه معهما فى الظاهر ، وتفترق عنهما فى الجوهر ، وهما :

١- وسطية أرسطو .

٢- إثنينية الفرس .

* * *

تنتمى وسطية أرسطو إلى التراث الإغريقى ، وهو تراث فى عمومه عقلانى ، يحتكم إلى الفلسفة أكثر مما يحتكم إلى الدين ، ويخاطب الخاصة أكثر مما يخاطب العامة ، ويفضل الفيلسوف على النبى .

ولهذا جاءت وسطية أرسطو عقلانية ، تبحث عن حد وسط بين حدين آخرين . أشبه بالمنطق الشكلى الذى وضعه أرسطو واهتم فيه بقضايا عقلية مجردة ، يمكن أن تصح عن طريق الاستنتاج العقلى ، دون نظر إلى المردود الفعلى . ولهذا سموه منطقًا

قياسيًا شكليًا ، يختلف عن المنطق الاستقرائى ، الذى يتتبع قضاياه وإسقاطاته من استقراء الواقع .

وقد انتهت وسطية أرسطو - كما شرحنا فى الكتاب الأول - إلى حالة ساكنة باردة ، تتناسب والقضايا العقلية المجردة ، التى لا تتصل بالواقع فى حركته واضطرابه وقلقه .

إن وسطية أرسطو هى نتاج عقل فيلسوف . ومن هنا ظلت بين الفلاسفة ، وفى كتب الخاصة ، ولم تتصل بوجدان العامة ، وتؤدى فى النهاية إلى اصطناع واقع حى ينتج حضارة لها تطبيقاتها ولها مردودها الحى .

* * *

درج الإنسان منذ أن وجد على فكرة الإثنينية . فهو يربط بين الليل والنهار ، وبين الشمس والقمر ، بين الذكر والأنثى ، بين الخير والشر ، بين الملاك والشيطان ، وغير ذلك من ثنائيات ، يشاهدها فى الظواهر الطبيعية ، أو يلاحظها فى المتقابلات المعنوية .

وتضرب فكرة الإثنينية بجذور عميقة فى الديانات الفارسية قبل الإسلام . وتكاد لا تخلو نحلة فارسية من هذه الفكرة ، التى نجدها عند المجوسية ، وفى الزرفانية ، وفى الزرادشتية ، وفى المازدكية ، وفى المانوية . وتعبر الأوفيستا - الكتاب المقدس عند الفرس - عن ذلك تعبيرًا واضحًا فقد ورد فيها : « أهورا مازدا الإله الأعظم ، وهو يكافح ضد أنرومينيوش إله الشر ، وستكون له الغلبة أخيرًا ، وكان ذرادشت نبى هذا الإله » .

ولا أظن أن الوسطية العربية ترجع إلى فكرة الإثنينية عند الفرس . فقد ذكرت فى فصل الطبيعة فى الكتاب الأول أن الطبيعة تقدم الشيئين متجاورين متمايزين ، وأن الرمز لذلك هو النخلة التى يتجاور عندها الظل والنور ، والتى أصلها ثابت وفرعها فى السماء . وذكرت فى فصل التاريخ فى الكتاب الأول أيضًا أن الإسلام لم ينزل لاغيًا للتكوين العربى ، بل استثار أفضل ما فيه ، ووضعه فى إطار منظم ، فعمد إلى فكرة الوسطية ، والتى هى نبت عربى طبيعى ، وأضاف إليها عنصر الضبط والربط .

وذكرت أن الرمز لذلك هو القسطاس أى الميزان الـذى يعـادل بيـن الكفتيـن ويحفـظ حركتهما فى يد منظمة ، وقلت فـى هـذا الصـدد : « الوسـطية العربيـة واقـع جغرافـى وتاريخى قبل أن تكون مهارة كلامية . إنها حياة يعيشها العربى وتجابهه صباح مسـاء ، ليل نهار . وجاءت العقائد لتنظيم هذه الحياة ، ووضع القيم لضبطـها . ومـن ثـم فـهى وسطية لا تجمد الإنسان ومواقفه الواقعية فـى نقطـة هـى مركـز الدائـرة أو هـى الحـد الأوسط فى قضية منطقية . الوسطية العربية لا تفترض شيئًـا ثـم تضعـه مقـابل شيئيـن . ولكنها تجمع وتجاور بين الشيئين ، من أجل مـا يتطلبـه الضبـط والربـط ، وتسـتلزمه مجريات التاريخ . فالشجاعة العربية ليست شيئًا فى مقابل الجبن أو التـهور ، بـل هـى تعترف بالجبن والتهور لأنها تعيش هاتين الصفتين ، ولكن الإنسان عليه ألا يتطرف فـى جبنه ، وألا يتطرف فى تهوره ، بل يضبطهما ويعادل بينهما » .

نقل الإسلام فكرة الوسطية من عالم الإلوهية ، وخلصـها مـن الأسـاطير الكثـيرة . التى كانت من قبل شائعة فى الديانات الفارسية . فلم يعد هناك إلهان يتنازعـان ، إلـه الظلمة وإله النور ، ولم تعد هناك حاجة إلى التضحيات التى تعتمد على دماء البشـر لكى ينتصر النور . إن عالم الإلوهية فى الإسلام عالم مطلق ، إن الله ليس كمثله شىء ومن هنا طرحت الوسطية الإسلامية الكثير من المهاترات والإسـقاطات البشريـة حـول ذلك العالم ، وأصبحت موقفًا يسمح بالصراع بين المتضادات ، ويحتـاج إلـى الإرادة البشرية لتغليب موقف على موقف ، لقد أصبحت فكرة واقعية . وصراعًا بشريًا مسـتمرًا ، مادام هناك نور وظلام ، وخير وشر ، يقول البخارى : « كـل شـىء خلقـه فـهو شفـع ، السماء شفع ، والوتر الله عز وجل » . ويؤكد الغزالى على هذا المعنى فـى إحيائـه ، فيقول : « فإن الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله فإنه فرد لا مقابل لـه ، بـل هـو الواحد الخالق للأزواج كلها » .

* * *

هذان همـا التيـاران الرئيسـيان المسـيطران علـى الفكـر الإنسـانى قبـل الوسـطية القرآنية . أحدهما : ينتمى إلى حضارة الروم ذات الجذور الإغريقية . والآخر ينتمـى إلـى حضـارة الفـرس . وهمـا - أى حضـارة الـروم وحضـارة الفـرس - الحضارتـان المسيطرتان على العالم قبل تشكيل الحضارة العربية الإسلامية .

إن الوسطية القرآنية تتشابه معهما فى الظاهر ، ولكنها تختلف عنهما فى الجوهر . فهى لا تقف عند العقل وحده ، كما هو الحال فى وسطية أرسطو ، وتجعله الحكم الوحيد فى قضايا الإنسان . وهى لا تلغى العقل وتقع فى دائرة الأسطورة كما هو الحال فى إثنينية الفرس . إنها تحترم العقل ، ولكن لا تعبده . ومن هنا فهى تجمع بين الفرقاء ، وتقدم نموذجًا حضاريًا ، يتحول إلى شاهد على الحقيقة حسب التعبير القرآنى فى آية الوسطية .

* * *

كان لابد من التمييز بين الوسطية القرآنية ووسطية أرسطو من ناحية . وبينها وإثنينية الفرس من الناحية الأخرى . ولابد أيضًا أن يكون هذا التمييز واضحًا كل الوضوح فى وعى المثقف العربى المعاصر ، حتى لا يقع فى أحد التطرفين اللذين يبعدانه عن تكوينه التاريخى والثقافى .

فقد شاع ، أولاً ، تضخيم العقل فى ثقافة الرواد فيما نسميه عصر التنوير ، وأصبح العقل وحده هو الذى يوازن بين الحصانين فى عربة أفلاطون ، دون رقيب أو وازع . ولم تكن النتيجة كما تمناها أفلاطون توازنًا بين الطرفين ، بل كانت جموحًا وتطرفًا يتمثل فى غرور من السائق ، أوقعه فى مواقف متطرفة ، جمح فيها العقل نحو العبثية والإحباط على المستوى الفكرى ، ونحو التخبط والحيرة على المستوى السياسى . وكلا المستويين (الفكرى والسياسى) ، يعكسان غياب اليقين الدينى ، وشحوب الضمير الإنسانى .

وقد تمثلت سيطرة العقل وحده عند المثقف العربى منذ عصر التنوير فى مظاهر عديدة . فهو مثلاً يهول أفكار الفلاسفة الإسلاميين ، من أمثال ابن رشد ، ويهون فى الوقت نفسه من أفكار المتصوفة الإسلاميين ، وهو ، مثلاً ثانيًا ، يفهم الوسطية كما فهمها أرسطو بصورتها العقلية الشكلية ، فى مقابل الوسطية القرآنية التى تضيف إلى العقل المجرد قوة أخرى . وهو مثلاً ثالثًا : يضخم من دور المعتزلة الذى يعتمد على الأدلة العقلية فى المسائل الدينية ، فى مقابل التيارات الأخرى التى تجعل اليقين لا يقوم على الفهم العقلى ، بقدر ما يقوم على حالة وجدانية تتسم بالتسليم والإذعان .

وأنا بذلك لا ألغى العقل ، ولا أقلل من دوره . وكل ما أريد أن أضعه فى إطاره المحدد والصحيح ، كآلة بشرية يستخدمها الإنسان فى تسخير القوى المادية حوله ، كما يستخدم مختلف الحواس التى وهبها الله له . وهى بعد ليست القوة الوحيدة التى وهبها الله للإنسان ، فهناك قوة أخرى يعرفها المصلحون والشعراء والفنانون ، ترشد العقل وتضيف إليه .

* * *

وإذا كان هناك تطرف عند بعض المثقفين العرب يتمثل فى تضخيم دور العقل على حساب القوى الأخرى ، فإن هناك تطرفًا من نوع آخر يتمثل فى تضخيم دور الأسطورة .

ويمكن أن نرصد هذا التطرف الأخير فى تيارين : أولهما تيار الدراسات الجامعية الأكاديمية ، والآخر التيار الذى يتمثل فى الإبداعات الأدبية .

* * *

أولت الدراسات الأوروبية الحديثة اهتمامًا شديدًا بالجذور الإنثروبولوجية ، التى تتابع تراث الإنسان فى مراحله البدائية الأولى ، وقد ركزت هذه الدراسات بنوع خاص على الأمور الفلكلورية بصفتها روافد متجمدة عند الإنسان ، وتعود بجذورها إلى الروافد الإنثربولوجية الأولى .

اهتم هؤلاء الدارسون برصد الأسطورة ومحاولة استخراج الدلالات التاريخية والثقافية خلال تطورها مع تطور مراحل الإنسان . والغربيون فى دراستهم للأسطورة خلطوا بينهم وبين الدين ، لأن الأمرين فى ظنهم يبتعدان عن المنهج العقلى ويستخدمان منهجًا خارج الدراسات المنطقية التجريدية ، ولأن معظمهم يرون فى الدين مرحلة تمثل القوى الغيبية كما نراها فى الأساطير القديمة . ويمكن أن نضرب مثالاً على ذلك بالمراحل التطورية عند أوجست كونت ، الذى يرى أن البشرية مرت بمراحل ثلاث: المرحلة الغيبية ، والمرحلة الميتافيزيقية ، وأخيرًا المرحلة الوضعية العلمية . وهذا الفيلسوف يضع الدين فى المرحلة الأولى التى تمثل الديانات القديمة التى تمتلئ بالأساطير وبتعدد الآلهة وبالصراع بين تلك الآلهة ، كما هو الحال فى

الأساطير الإغريقية . وقد انتقل هذا المنهج الأكاديمى إلى الدراسات الأكاديمية بالجامعات المصرية والعربية ، وطبقه بعض الباحثين على التراث العربى والإسلامى ، وذهبوا - كما فعل الغرب - إلى الحد الذى يخلط بين الأسطورة والدين ، ورأوا فى الطواف حول الكعبة أو لثم الحجر الأسود ، امتدادًا للطقوس الوثنية فى العصر الجاهلى .

حقًا ، قد يخيل عند النظرة الأولى والمستعجلة أن هناك تشابهًا بين الدين والأسطورة فى المظهر ، فكلاهما يستخدم قوة تختلف عن قوة العقل وكلاهما يستخدم قوة غيبية تختلف عن القوة العقلية ، ولكن المسلم المؤمن يدرك بفطرته السليمة أن هناك فرقًا جوهريًا بين الأسطورة والدين ، كهذا الفرق بين السحر والحق . إن سحرة فرعون يحاكون معجزة موسى ولكنها محاكاة زائفة ، فالمعجزة تبقى والسحر يفنى . إن الأسطورة هى بقية من تراث الأولين التى تتصف بالجهل وبالتفسير البدائى للمظاهر الكونية ، وهى من هذه الزاوية مرحلة أولى بدائية تطورت بعدها الإنسانية إلى مراحل أخرى . أما الدين ، فهو شىء غير هذا ، هو ليس مرحلة بدائية تنتهى بظهور فلسفة أو بوجود الروح العلمية الموضوعية ، ولكنه تفكير سائد يدوم مع الإنسان ويبقى على
مدى الحضارات العلمية الموضوعية ، ولكنه تفكير سائد يدوم مع الإنسان ويبقى على
مدى الحضارات المختلفة ، إن الدين ليس جهلاً ولا فكرة أولية ، إنه تفسير للكون ، إنه لا يلغى العقل ، ولكن يضيف إليه ، فهو من هذه الزاوية يمثل مرحلة شاملة وعامة تتجاوز العقل وتضيف إليه .

* * *

اهتم المبدعون العرب فى العصر الحديث بالأسطورة اهتمامًا شديدًا ، وجاروا فى ذلك بعض الدراسات الأنثروبولوجية والفلكلورية الآتية من أوروبا ، ونظروا إلى الأسطورة نظرة تقديس وتقبلوها بكل ما فيها من ثقافة الإنسان البدائى ، دون أن يحاولوا أن ينقوها أو يعدلوها أو يتجاوزا بها إلى ما هو أفضل .

والكاتب الليبى إبراهيم الكونى يصلح مثالاً بارزًا على ولع المبدعين العرب بالأسطورة ، فهو فى رواياته وفى قصصه القصيرة يرصد المظاهر الأسطورية فى الصحراء العربية بولع شديد يصل إلى حد التقديس . إن قصته القصيرة التى كتبها فى

موسكو عام ١٩٧٢ ، وأصدرها تحت عنوان « إلى أين أيها البدوى ، إلى أين » ، تتقبل الصحراء بكل ما فيها ودون تساؤل أو موقف ، وكأنه الإنسان الأول يفنى فى الظواهر الطبيعية ، ويخلع عليه قوة خارقة مقدسة ، فهو يتحدث عن إله الرعد وعن إله البرق ، وغير ذلك من قوى طبيعية يقدسها الإنسان الأول ، وتتحول بعد ذلك إلى أسطورة يعيشها البشر . إن الجفاف يصيب الصحراء ، والبدوى بطل القصة يخرج إلى المدينة يلتمس عندها الخلاص . ولكن إلى أين أيها البدوى إلى أين ! حقًا ، الصحراء قاحلة وليس فيها سوى السراب . ولكن البدوى فى المدينة يكتشف وجه الصحراء الآخر الذى افتقده فى المدينة ، فهو يتذكر الغزالة الرقيقة ، والسراب الفضى ، ويتذكر الغناء الذى كان يأتيه طواعية ، إنه فى المدينة يعرف الخوف ، ويعرف الشرطة ، ويفتقد صوته . ومن هنا نراه يترك المدينة بلا ندم ، ويتجه من جديد نحو صحرائه . إن الكونى يرى فى المدينة شرًا مطلقًا ويرى فى الصحراء خيرًا خالصًا ، إنه يتغنى فى الصحراء ، ويتقبل كل أساطيرها وينجذب إليها بطريقة رومانسية ، يفنى فيها ويتوحد ، وكأنه الصوفى الذى يفنى فى المطلق ، إنه موقف رومانسى ينفر من التحضر ويرى فى المدينة شرًا خالصًا ، لقد عاد البدوى إلى صحرائه ، ولكن صوته لم يعد إليه ، والغناء لم يعد يأتيه طواعية ، لقد افتقد براءته الأولى وشوهته اللحظة التى عاشها فى المدينة . ويأتى أسلوب الكونى فى هذه القصة مباشرًا ، يمتلئ بالجمل الرومانسية المشحونة بأدوات الانفعال ، إن عنوان القصة يوحى بذلك ، وإن جمله داخل القصة تمتلئ بالانفعالية وبالانحياز نحو الحياة الصحراوية وبالفناء فى المظاهر الطبيعية وتقديسها بكل ما تحمله من أسطورة ومن انحياز نحو الحياة البدائية الأولى .

إن الصحراء عند الكونى تتحول إلى قوة غاشمة ، تفرض قانونها على الإنسان ، وتحيله إلى مجرد لعبة يفقد خلالها ذاته وإرادته ، إن الراوى فى قصة « الجدى الأسود » من مجموعة « شجرة الرتم » قادم من أوروبا وأمريكا ، فهو راوٍ قد عايش الحياة الحديثة فى أعلى مظاهرها ، ولكنه فى الصحراء يفقد كل ما عايشه ، ويخضع تمامًا لقانون الصحراء .

ومن هنا نرى أن الرواى يتقبل الخوارق التى لا تخضع بأى حال للعقل ، لقد عثر على قلة ذهب فى الصحراء ، ويقول له صديقه مأمون : لابد من ذبح جدى أسود حتى لا

يتحول الذهب إلى رماد ، ويسارعان إلى ذبح الجدى الأسود ، ولكن مع ذلك يتحول الذهب إلى رماد عقوبة لهما على الاعتراض على قضاء اللّه . إن صديق مأمون فى ثنايا القصة يعترض على قضاء الله الذى يعطى أهل الشمال بينما يحرم أهل الجنوب ويتركهم فقراء . وتنتهى القصة والشيخ توما يقول لهما : لابد أن أحدكما آثم . ويعلق مأمون بأسى : من منا ليس آثمًا يا شيخ توما ، من ؟

إن عنوان « الجدى الأسود » هو رمز لثقافة الصحراء التى تفرض نفسها على الإنسان ، وتحيله إلى مجرد لعبة – كما قلت من قبل – إن المكان هنا هو البطل وهو المسيطر ، وإن الإنسان يفقد ذاته داخل هذا المكان ، وتضيع كل منجزاته الحضارية ، فالمكان هنا هو قدر أعمى لا يستطيع الإنسان الإفلات منه .

إن الصحراء عند الكونى ليست هى مجرد الأعاصير ولا ذرات الرمال ، وليست هى الدروب والأماكن التى يفصلها الكونى بدأب شديد وكأنه ابن بطوطة يرصد ويتابع – أقول إن الصحراء عند الكونى ليست هى تلك المظاهر الخارجية ، ولكنها أيضًا هى القوة الغيبية التى تسير الجماعة ، وتفرض قانونها . وهى قوة تختلط بالأساطير إلى حد كبير ، وكأننا إزاء الإنسان البدائى ، فلا ثقافة هنا ، ولا دين ، ولكنه قانون غاشم يقوم على الأسطورة إلى حد كبير . إن قصة « الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة » التى كتبها الكونى فى موسكو عام ١٩٧٢ م ، ونشرها عام ١٩٧٤ ، وصدرت ضمن مجموعة « الخروج الأول إلى وطن الرؤى السماوية » – إن هذه القصة تصلح مثالاً بارزًا على الرؤية الأسطورية التى تختلط بالدين وتتحول إلى قوة غاشمة . إن الجماعة فى هذه القصة فى صراع دائم مع الطبيعة ومع الأعاصير ومع العواصف ، وهو صراع جماعى يختلف عن الصراع الفردى عند عجوز « همنجواى » . وهو أيضًا صراع تسنده قوة روحية تجعله يختلف أيضًا عن عجوز « همنجواى » الذى لا يعتمد إلا على قدرته الفردية . إن القوة الروحية فى هذه القصة تتمثل فى « الشيخ مهمد » الذى يسند الجماعة ويخلق لها قانونًا خاصًا بها ويفتى فتاوى خارج نطاق الدين الخاص ، ويلزم الجماعة بأوقات للصلاة خارج نطاق الصلوات الخمسة . فهو إذن يلعب دور القوة الروحية التى تلجأ إليها الجماعة فى وقت الأزمات ، وتستمد منها البركة والمواصلة . وهى قوة غاشمة لا ترحم ، إن « الدامومى » الذى يتصدى وحده

للتيار وينقذ الفتاة من الغرق ، لا ترحمه الجماعة على الرغم من فروسيته وشجاعته ، لأنه أنجب من الفتاة دون زواج ، ومن هنا تطرد الجماعة هذه الفتاة على ظهر بعير ، ومعها ابنها ، وتحولت قصتها إلى أسطورة ترددها الجماعة وتصبح قوة ضاغطة على الإنسان في تلك الصحراء التي لا تعرف الرحمة .

* * *

فرق كبير بين صحراء وصحراء

الصحراء في سورة « الرعد » يبرز فيها الإنسان مميزاً عن سائر الكائنات الأخرى ، فقد كرمه الله وجعله يحتوى على سائر الظواهر الطبيعية ، ويتأملها ، ثم يتجاوزها ، ليدرك القوة العليا وراءها . وهي قوة عادلة ، ترعى الإنسان المؤمن ، وتجازيه على عمله . ومن ثم فالإنسان داخل هذه الصحراء مطمئن يتمتع باليقين والسكينة ، ويعرف طريقه وغايته .

أما الصحراء عند الكوني ، فالإنسان يضيع فيها ، ويقع تحت سطوة قوة غاشمة . إن المكان في هذه الصحراء أقوى من الإنسان ، وإن الترسبات الأنثروبولوجية والفلكلورية أقوى من ثقافة الإنسان الواعي .

فرق كبير بين صحراء وصحراء .

الحضارة الأولى نابعة من حضارة يقينية وتعرف طريقها . أما الصحراء الأخرى والأخيرة فهي نتيجة قراءات في بعض المذاهب الغربية ، وخاصة المذاهب العبثية ، ومن ثم فإن الإنسان في هذه الصحراء لا حيلة له ، إنه كريشة في مهب الريح ، إذا استعرنا التشبيه الذي أطلقته فرقة الجبرية على مصير الإنسان ، وهو تشبيه يرفضه أهل السنة . لأنه في النهاية يؤدي إلى إسقاط التكاليف .

سورة الكهف
بين الحكمة والفعل

وسطية أرسطو تعتمد على قدرات عقلية ، وتنتسب إلى فيلسوف صاحب المنطق الشكلى ، الذى يصفونه بأنه ميزان الفكر .

وهى تبحث عن نقطة رياضية فى الوسط ، إذا ما استطاع الفيلسوف بفكره أن يحددها بين طرفين ، فقد توصل إلى اليقين واستراح باله .

أما الوسطية القرآنية فإنها شئ يختلف عن ذلك كل الاختلاف ، إنها تدور تحت عين الله ورعايته ، والوصول إلى الصراط المستقيم الذى يجمع بين الطرفين يحتاج إلى هداية من الله ، كما ترشدنا إلى ذلك سورة الفاتحة .

ولا يعنى ذلك أن الوسطية القرآنية تحارب الأسباب العقلية ، وتقف ضد المنطق ؛ بل إنها على العكس من ذلك ، تحث على استخدام العقل ، والنظر فى الكون ، والتدبر فى آيات الله . كما يقول الغزالى فى تعبير أقرب إلى التعبير الأرسطى : « هو ميزان الله فى أرضه » .

ولكن الوسطية القرآنية تضع العقل فى موضعه الصحيح ، حتى لا يجمح ويصاب بالغرور . إنه موهبة من الله شأنه شأن المواهب البشرية الأخرى ، يستخدمه الإنسان فى عمارة الكون ووظيفة الاستخلاف .

ومع أن القرآن لا يلغى العقل بل يحث على استخدامه ، فإنه يترك المنافذ مفتوحة أمام التوقعات الطارئة . إن الوسطية القرآنية لا تقف عند يقين عقلى رياضى فتريح وتستريح ، ولكنها تعمل جهدها وتستخدم مواهبها ، ثم تتوكل على الله .

* * *

وهنا نصل إلى فكرة التوكل ، التى تنظم العلاقة بين القوة البشرية والقوة الإلهية . إنها لا تلغى الجهد البشرى ولا تتجاهل القوة العليا .

إن مقام التوكل بهذا التعريف ، يجعلنا فى قلب الوسطية التى تجمع بين الأمرين : بين العقل والحكمة ، بين الظاهر والباطن ، بين الأسباب والتوقعات ، بين العلم البشرى والعلم اللدنى .

ليس التوكل إذن دعوة إلى التواكل وترك الأسباب . وليس هو فى الوقت نفسه ركونًا إلى المعلوم الظاهر ، والاستئناس به ، حتى لة كان ذلك المعلوم هو القدرات العقلية والمنطقية ، إنه جمع بين الظاهر والباطن .

غلاة التصوف تركوا الأسباب فوقعوا فى تطرف أول . وأهل المنطق اعتمدوا كليًا على الأسباب فوقعوا فى تطرف ثانٍ . أما أهل الوسط ، فقد جمعوا بين الأمرين تحت مقام التوكل .

التوكل إذن يهدف فى غايته إلى تنظيم مشاعر الإنسان ، والأخذ بيده فى مسيرته فى الحياة وتشابك الأمور ، إنه قوة تحميه من الجموح والغرور ، وتهديه فى النهاية إلى اليقين ومقام السكينة ، والرضى باحتمالات المستقبل ، إن أصابه خير شكر ، وإن أصابه شر صبر .

* * *

روت بعض التفاسير أن موسى عليه السلام خطب يومًا فى قومه بنى إسرائيل ، وجاءه هاجس بأنه أعلم الناس ، فما كان من الله عز وجل إلا أن أوحى إليه بأن هناك عبدًا صالحًا عند مجمع البحرين هو أعلم منه ، ولم يضيع موسى وقته ويتواضع الأنبياء فى البحث عن الحقيقة أينما كانت ، شد الرحال وصحب فتاه ، وأخذ يقطع القفار والبحار ، ويطلب العبد الصالح ، ويلح فى الطلب مهما قابلته الصعاب ، وأخيرًا اهتدى إلى العبد الصالح جالسًا تحت صخرة عند مجمع البحرين ، وطلب منه أن يعلمه مما علمه الله .

ولكن العبد الصالح – الذى يحدده بعض المفسرين بأنه الخضر عليه السلام – يخبره بان علمه لدنى ، بمعنى أن هذا العلم لا يقف عند الظاهر ، ولكنه يستكشف وراء الظاهر حكمة إلهية ، قد تخفى على العبد فى معمعة الحياة ، ولكنها اعم وأشمل وأصدق ، ويطلب الخضر من موسى التحلى بمقام الصبر وعدم التسرع لو أراد أن

يدرك هذا العلم ، فيذعن موسى لشرطه ، وينطلقان معًا فى خوض الحياة ، كلٌ يعتمد على ما وهبه الله من علم ، وما منحه من قدرات .

وينطلقان موسى والخضر ، وتقابلهما مواقف وتجارب وامتحانات ، يقف موسى إزاءها موقف العقل الظاهر الذى يعتمد على التفسير البشرى ، ويحاول أن يعترض على الخضر ، ولكن الخضر يعطيه فرصة مرة ومرتين وثلاثًا ، وفى النهاية يكشف له الخضر عن الحكمة الإلهية وراء كل هذه الظواهر المرئية .

نحن إذن أمام تفسيرين : تفسير يمثله موسى عليه السلام ، ويقف عند الظاهر . أما التفسير الآخر فهو تفسير باطنى يعتمد على العلم اللدنى وعلى رؤية أوسع وأشمل .

ويقدم الخضر لموسى خلاصة التجربة التى تعنى بأن الخضر على نوع من العلم وبأن موسى على نوع آخر من العلم ، وبأن علم كل منهما لا ينقص من علم الله إلا كما ينقص العصفور الذى يحسو حسوات قليلة من ذلك البحر المحيط على حد تعبير الخضر عليه السلام .

ويتواضع الأنبياء والبحث عن الحقيقة أينما كانت ، يعى موسى الدرس تمامًا ، ويطرد الهاجس الذى ألم به ، ويطامن من غروره ، ويستسلم لمقام التوكل ، الذى يأخذ بالأسباب ، ويترك المنافذ مفتوحة أمام التوقعات الطارئة - التى تحكمها حكمة إلهية تعرف مصلحة البشر أكثر مما يعرف البشر أنفسهم .

إن قصة الخضر مع موسى كما وردت فى سورة الكهف تفسر العلاقة بين الحكمة الإلهية والفعل البشرى ، وتقدم للإنسان فى مسيرته فى الدنيا زادًا يحميه من الغرور من ناحية ، ويحميه من الوقوع تحت براثن مشاعر العبث والإحباط ، فإن أصابه خير شكر ولم يغتر ، وإن أصابه شر صبر ولم يتحطم . إن الحكمة تجعله لا يؤمن بالظاهر وحده ، ولكنه يدرك حكمة إلهية قد تقدر له الخير حتى فيما يراه برؤيته القاصرة شرًا « فعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

* * *

إن قصة الخضر تبرز الحكمة الإلهية العليا ، ولكن هذا لا يعنى تجاهل الفعل

البشرى لأن من يظن ذلك لا يدرك سياق سورة الكهف ، فليس صدفة أن بعد قصة الخضر ترد مباشرة قصة ذى القرنين . ومن يركز على قصة الخضر وحدها ينظر بعين واحدة ، ومن يركز على قصة ذى القرنين وحدها ينظر بعين واحدة أيضًا ، ومن يأخذ القصتين معًا فى اعتباره فهو ينظر بعينين ويدرك تمام الإدراك سياق سورة الكهف .

قصة ذى القرنين تشير إلى الفعل البشرى ، وتقدم السورة ذا القرنين وهو يجوب فى الأرض شرقها وغربها ، وقد قال ﷺ بأن ذا القرنين سمى بذلك لأنه طاف قرنى الدنيا يعنى جانبيها شرقها وغربها ، كان يدفعه إلى ذلك شعور بأن يعمر الكون وينصر الخير على الشر ، والقصة تركز على الفعل البشرى ، وتشير فى أكثر من مرة إلى أن ذا القرنين أتبع سببًا ، ويفسر النسفى هذا السبب بأنه « ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة » وقد اعتمد ذو القرنين على علمه ويده وسخر قومه وأتباعه فى عمارة الكون ، معنى أن هذه السورة تشير إلى الصناعة ، فذو القرنين يطلب من قومه بأن يعينوه بقوة أى بفعلة وصناع يحسنون البناء والعمل كما قال النسفى ، ويستخدم ذو القرنين علمه وقدرته ، ويستخدم الصناع والآلات ، ويلين الحديد وينفخ فيه ويفرغ عليه قطرًا ، حتى يبنى ردمًا قويًا لا يستطيع أحد أن يعلوه أو ينقبه .

قصة الخضر تشير إلى الحكمة العليا ، وقصة ذى القرنين تشير إلى الفعل البشرى ، والقصتان معًا يردان فى سياق واحد ، إحداهما بعد الأخرى وبينهما صلة ، وقد نسب النسفى إلى النبى ﷺ أنه قال يتحدث عن ذى القرنين : « إنه وجد فى الكتب أن أحد أولاد سام يشرب من عين الحياة فيخلد ، فجعل يسير فى طلبها ، والخضر وزيره وابن خالته فظفر وشرب ولم يظفر ذو القرنين : « فالقصتان إذًا بينهما صلة ،و الخضر بينه وبين ذى القرنين صلة أيضًا ، ومن هنا نجد القصتين تردان فى سورة واحدة ، إحداهما عقب الأخرى كما ذكرت ويتشابهان فى أشياء كثيرة ، فالخضر يمر بمواقف ثلاثة (السفينة - الغلام - الجدار) ، وذو القرنين يمر بمواقف ثلاثة أيضًا (مغرب الشمس - مطلع الشمس - بين السدين) ، وكلمة « فانطلقا » فى قصة الخضر تتكرر ثلاث مرات ، كما أن كلمة « ثم أتبع سببًا » تتكرر كذلك ثلاث مرات ، و « أما » التفصيلية فى قصة الخضر تتكرر ثلاث مرات أيضًا ، وتكاد القصتان تتقاربان فى عدد الجمل وعدد الكلمات أيضًا . وكل هذا يدل على أن سورة الكهف تشير إلى القوة

العليا ، وفي الوقت نفسه لا تتجاهل الفعل البشرى ، وسياق السورة يدعو المسلمين إلى أن يركزوا على الجانبين (الحكمة الإلهية والفعل البشرى) في تأسيس الحضارة الإسلامية .

* * *

وتكاد لا تمر قصة من قصص القرآن إلا وفيها عبرة دينية ، ويكاد لا يأتى حكم من أحكام القرآن إلا وهو ملفوف بثوب دينى ، ويكاد لا يذكر مظهر من مظاهر الطبيعة إلا لبيان أن وراء هذه المظاهر قوة عليا .

أما من حيث القوة المادية فهناك سورة كاملة باسم « الحديد » ، ذكرت أن الله أنزل الحديد لأن فيه بأسًا شديدًا ومنافع للناس ، وحينما يرد ذكر داود عليه السلام فى سورة « ص » يشير إلى أن الله ألان له الحديد ، وعلمه الصناعة ، وجعل يأكل من كسب يديه . حينما يرد ذكر قوم سبا أو قوم عاد يشير القرآن إلى التقدم العلمى والمهارة الصناعية ونحت الجبال .

ولكن القرآن الكريم حينما يورد الظواهر المادية أو الصناعات البشرية دائمًا يذكر بالجانب الروحى ، حتى لا ينغمس فى الجوانب المادية وينسى الجانب الروحى . إن ذا القرنين حين يبدأ السبك لا يأخذه الغرور ، بل يرى بأن ذلك ما مكنه فيه ربه ، ويرى أن الله قادر على أن يجعله دكًا . وحينما ترد الصناعة والعمران من قوم سبأ يذكر فى القرآن بأن ذلك قد ذهب هباء لأنهم تناسوا الجوانب الروحية .

إن هذا السياق القرآنى الذى يركز على الجانبين معًا : الجانب الروحى والجانب المادى ، كان له أثره البالغ فى تشكيل الحضارة العربية الإسلامية بعد نزول القرآن الكريم ، وبعد أن امتدت شرقًا وغربًا ، فأصبحت حضارة متكاملة لا تركز على جانب وتتجاهل الجانب الآخر ، إنها تشير إلى القوة المادية ، ولكنها فى الوقت نفسه تجعل أسس هذه القوة تقوم على الجوانب الروحية .

إن قصة الخضر وقصة ذى القرنين تؤكدان على هذا السياق القرآنى المتكامل وتشيران بان الحضارة العربية الإسلامية تجمع بين الحكمة الإلهية والفعل البشرى ، وبين العلم اللدنى والعقل السببى ، بين الظاهر والباطن ، وبين القوة المادية والقوة الروحية ، بين الغيب المتجاوز والفعل البشرى .

سورة الرحمن
وصيغة المثنى

وجهت الآيات المكية بنوع خاص الأنظار نحو المتقابلات فى الظواهر الطبيعية . كالليل والنهار ، والشمس والقمر ، والأرض والسماء ، وغير ذلك من أزواج يتقابل أحدهما مع الآخر .

وقد اتخذنا فى فصل « الطبيعة » من الكتاب الأول لمشروع « الوسطية العربية » ، من النخلة رمزًا لهذا التقابل ، وقلنا إنها تجمع بين الظل والحرور ، بين الخصب والجدب ، بين الموت والحياة ، وأن أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء .

والقرآن الكريم يلفت الأنظار نحو الظواهر الطبيعية متكاملة . فلا يقف المرء عند طرف ويتجاهل الطرف الآخر . إن الوحدانية من صفات الله عز وجل ، الذى ليس كمثله شىء ، ولا يقاس عالمنا على عالمه ، فهو الواحد الأحد الذى لم يلد ولم يولد . أما الزوجية فهى صفة العالم الذى حولنا ، وكل طرف يحتاج إلى الآخر ، ومن الطرفين معًا تكتمل دورة الحياة .

وتأتى السور المدنية ، فلا تكتفى بملاحظة الزوجية فى الظواهر الطبيعية والإنسانية . ولكنها تلقى على هذه الزوجية نوعًا من الوعى الإنسانى ، فلا يكتفى المرء بتأمل الظواهر حوله ، يلاحظها بإعجاب وانبهار ، ثم يقف مكانه كالتمثال ولا يتحرك . ولكن المطلوب ، وخاصة فى المرحلة المدنية ، أن يتحرك وأن يتخذ موقفًا ، وأن يحول هذه الظواهر إلى موضوع . يكون فيه فاعلاً لا منفعلاً .

وقد اتخذنا فى فصل « التاريخ » ، من الكتاب الأول لمشروع « الوسطية العربية » ، من الميزان رمزًا لمرحلة الضبط والربط . وقلنا : إن الميزان يحتوى على كفتين : إحداهما ذات اليمين ، والأخرى ذات الشمال ، والمسلم لا يكتفى بمراقبة الكفتين وتأرجحهما فى الهواء ، ولكنه يعمل على الموازنة بين الكفتين ، حتى يظل قائم الميزان معتدلاً يجمع بين الطرفين ، دون أن يميل ذات اليمين أو ذات الشمال .

إن التقابل بين الرجل - الذكر - ، والمرأة - الأنثى - ، يقدم مثالاً تطبيقيًا

على كل ما قلناه ، فمع اجتماعهما يصبحان زوجين ، وينجبان طرفًا ثالثًا وهو المولود ، يحمل خصائص كل منهما ، ولكنه في الوقت نفسه غيرهما .

تلك هي فطرة الله ، التي يسميها الغربيون بمنحة الطبيعة . ولكن الإنسان لا يقف عند منحة الطبيعة ، ولا يقف عند حد الفطرة ، التي تمثل العطاء الأولى من الإله ، يكون مطلوبًا من الإنسان بعد ذلك هو الوعي بتلك الطبيعة ، وتنمية المولود الذي هو منحة الله ، وتحويله إلى إنسان كامل جدير بحمل رسالة الله ، جدير بأن يكون خليفة الله في أرضه ، ومهيأ لحمل الأمانة بين عباده .

* * *

وسورة الرحمن سورة مدنية بين سورتين مكيتين . وقيل : هي سورة مكية إلا بعض الآيات . ومن ثم فهي تجمع بين رمز النخلة ورمز الميزان في آن واحد . توجه المسلم إلى الظواهر الطبيعية المتقابلة من ناحية ، وتأمره بالوزن والقسط ، فلا يطغى في الميزان ، وفي الوقت نفسه لا يخسر الميزان .

* * *

منذ الآيات الأولى وسورة الرحمن مهتمة بلفت الأنظار نحو الشيء مع ما يقابله . ويستمر هذا الاهتمام حتى نهاية السورة ودون انقطاع . فالشمس مع القمر ، والنجم وهو النبات لا ساق له مع الشجر الذي له ساق ، والسماء مع الأرض ، والفاكهة مع الحب ، والإنسان مع الجان ، والصلصال مع النار ، والمشرق مع المغرب ، والعذب مع المالح ، واللؤلؤ مع المرجان ، والماء مع الجبال ، والفاني مع الباقي ، وجهنم مع الجنة .

* * *

وفي الوقت نفسه ومنذ الآية الأولى ، توقظ السورة الوعي داخل الإنسان . فهو يتميز عن سائر الظواهر الطبيعية بالوعي بهذه الظواهر ، فالرحمن قد علمه القرآن والبيان ، بمعنى أنه أعطاه صفة المعرفة للأشياء حوله . فهو لا يندرج في الظواهر الطبيعية ، ويخضع لها شأن الجماد والحيوان ، ولكنه يعي هذه الظواهر ، ويتخذ منها موقفًا . هو موقف القرآن الكريم ، الذي يعني بتغليب قوى الخير على قوى الشر ، واتخاذ موقف من المتقابلات التي يصادفها المرء في كل مكان .

ومن هنا تأتى فكرة الميزان بين ملاحظة السماء المرفوعة والأرض الموضوعة ، وهى فكرة يمكن أن نطرحها على هيئة شكل للميزان يمثل قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ قائم الميزان . ويمثل قول الله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ الكفة الأولى . ويمثل قول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ الكفة الثانية .

إن قائم الميزان الذى يقف منتصبًا فى الوسط ويرمز إليه قول الله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ﴾ ، وهو قول يلخص دقة الوسطية ومثاليتها ، فهى تعتمد على فكرة الإقامة . وهى فكرة كما حللناها فى فصل « التاريخ » من الكتاب الأول (المذهب) ، تقوم على التواصل ، وترمى إلى هدف خلقى ، رمزنا له فى فصل « الأخلاق » من الكتاب الثانى (التطبيق) ، بالعدل أو بالقسط إن أردنا أن نقترب من التعبير القرآنى .

إن التحليل اللغوى للإقامة والوزن والقسط والعدل تصب كلها فى فكرة الوسطية القرآنية ، التى تعتمد على مراعاة الجانبين ، بحيث لا يطغى جانب بالخسران أو بالزيادة . ثم توازن بين الأمرين فى موقف يعيهما ويوجههما . وإن أردنا الاختصار قلنا إنها فكرة تقوم على مفهوم الصراط المستقيم ، الذى يتردد فى ثنايا القرآن الكريم ويحتاج إلى موقف واع ومثال ؛ لأنه أرق من الشعرة وأحد من السيف . والمسلم مطالب بالتوازن ، ومعرفة مواقع قدميه فوق هذا الصراط المستقيم ، حتى يكتب له النجاة إزاء المتضادات والمخاوف ، التى تحيط به على جوانب الطريق .

* * *

وسورة الرحمن تلمس أربعة جوانب من جوانب الوسطية القرآنية هى :

الجانب الأول ، وهو يعنى النظر إلى الجانبين متقابلين ومتكاملين . وقد رمزنا إلى ذلك بشجرة النخلة ، التى هى مثال المسلم وعمته كما ورد فى الحديث النبوى ، لأنها النبات الصحراوى الذى يكثف خلاصة المكان ويشير إلى أبعاده الجغرافية التى تنعكس بالضرورة على أبعاد الإنسان التاريخية والثقافية .

والجانب الثانى يعنى بالموازنة بين الأمرين فى موقف واع ، قد رمزنا له بالميزان ، وهو رمز يلخص مردود الإنسان على المكان ، أو انعكاس التاريخ على الجغرافيا ،

وهو أيضًا رمز يقوم على الوعى والانضباط ، ويهدف إلى موقف خلقى ، يلخص موقع المرء من الأحداث حوله ، وهو يسعى إلى تحويل المادة الغفل إلى معنى يعطى للأشياء حميميتها ، ويمنحها وجودها .

والجانب الثالث يرمز إليه قول الله تعالى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ ﴾ . وهو قول يلخص فكرة التمايز ، التى تحفظ للأطراف استقلاليتها ، وتتيح لها التعايش والتجاور ، دون أن يفنى أحدها فى الآخر ، فالماضى يتعايش مع الحاضر ، والأصالة تتعايش مع المعاصرة .

ويأتى الجانب الرابع فيضفى على هذا التعايش نوعًا من الحركة ، ومن الحوار والتوتر الخلاق ، الذى ينتقل بالأطراف إلى حالة جديدة ، لا تطيح بالقديم على حساب الجديد ، ولا تطيح بالثابت من أجل المتغير . إنها صيغة خاصة بالحضارة العربية الإسلامية ، وتختلف عن فكرة الجدلية (الديالكتيك) بمفهومها الغربى ، الذى يطيح بالطرفين من أجل شئ ثالث يختلف عنهما . إنها صيغة تقوم على فكرة الحركية بين الأطراف ، وهى الفكرة التى تشير إليها الآية الكريمة : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ . فالشأن هنا هو التغير والحركة المتجددة . فالكون لا يتوقف ، وصفات اللّه لا تتعطل يوم السبت كما ادعى اليهود . فالتغيير من صفات الكون ، ويتم خلال المتقابلات ، أو كما جاء فى النسفى تعليقًا على هذه الآية :

« هو فى شان أى كل وقت ، وحين يحدث أمورًا ويجدد أحوالاً . كما روى أنه ﷺ تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن ؟ فقال : « من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويفرج كربًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين » . وعن ابن عيينة : « الدهر عند اللّه يومان : أحدهما اليوم الذى هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه هو الأمر والنهى والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع ، والآخر يوم القيامة ، وشأنه فيه الجزاء والحساب » . وقيل : نزلت فى اليهود حين قالوا : إن اللّه لا يقضى يوم السبت شأنًا . وسأل بعض الملوك وزيره عن الآية ، فاستمهله إلى الغد ، وذهب كئيبًا يفكر فيها ، فقال غلام له أسود : يا مولاى ، أخبرنى ما أصابك . لعل اللّه يسهل لك على يدى . فأخبره . فقال : أنا أفسرها للملك . فأعلمه . فقال : « أيها الملك شأن اللّه أنه يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويشفى سقيمًا ، ويسقم سليمًا ،

ويبتلى معافًا ، ويعافى مبتلى ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزًا ، ويفقر غنيًا ، ويغنى فقيرًا »
فقال الأمير : « أحسنت » . وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة . فقال : « يا مولاى ، هذا من شأن الله » .

* * *

خضعت سورة الرحمن إذن فى دلالاتها المضمونية لفكرة الزوجية ، التى تجسدت فى الظواهر الطبيعية ، وفى الوعى الإنسانى الذى يوازن بدقة بين المتقابلات .

ولا يقف الأمر فى هذه السورة عند حد الدلالات المضمونية ، بل تعداه إلى مردود الزوجية على البنية اللغوية فى هذه السورة ، كما هو واضح من التركيز على صيغة المثنى .

وإذا كانوا يقولون : إن اللغة العربية هى لغة الضاد ، التى تفردت عن غيرها بهذا الصوت ، فإننى أقول سياقًا مع نبرة الفخر : وهى أيضًا لغة التثنية ، التى تهتم فى بنيتها بالمثنى ، وتفرد له أبوابًا مستقلة فى كتب النحو والصرف ، دون أن تميع حدوده بين المفرد والجمع .

والاهتمام بالمثنى فى العربية أسبق بكثير من كتب النحو . فهو يتواتر فى الشعر الجاهلى ، وقد أصبح تقليدًا معروفًا أن يخاطب الشاعر فى معلقته أو قصيدته خليليه أو رفيقيه ، ويطلب منهما أن يقفا معه على الأطلال ، وأن يستعيدا الذكريات الجميلة .

وربما كان لهذا التقليد مبرراته داخل النفس العربية ، وقبل أن يصبح شيئًا يتداوله الناس ، دون أن يعوا تمامًا دواعيه ومبرراته .

فالإنسان العربى فى صحرائه الواسعة ، يبحث عن رفيق يؤنسه . ومن هنا جاء المثل « خذ الرفيق قبل الطريق » . وقد لا يجد الرفيق ، فلا بأس إذن من أن يتخيله وأن يحادثه ، وقد يخلع على ناقته أو فرسه صفة الرفيق ، فيخاطبها ويحاورها ويحولها إلى بشر يؤنس وحدته . هو على أى حال وعلى أى تفسير يبحث عن الآخر ، الذى يحقق من خلاله ذاته ، ويحفظهما من أن تتوه داخل الصحراء الكبرى .

والقرآن الكريم يحرك التراث ، الذى يشكل وجدان الإنسان العربى ، فيصغى إليه ، ويتخلى عن كبريائه ، ويجد ذاته خلال سوره ، التى تحرك وجدانه الجمعى .

إن سورة الرحمن تهتم بالمثنى انطلاقًا من فكرة الزوجيـــة ، وتعبـيرًا عـن الـتراث الجمعى . إن علامة التثنية تتغلغل فى هذه السورة ، وتفرض نفسها على فواصل الآيات .

وإذا كان السيوطى فى الإتقان ذكر أن فواصل الآيات قد تؤثر فى مواضع كثيرة ، فإنه من الممكن أن نضيف هنا إلى السيوطى مـن أن مراعـاة التثنيـة فـى هـذه الـسورة تنعكس على بنيتها اللغوية . ومن أجل ذلك فالمشرق ليس مشرقًا واحـدًا ، وإنمـا هـو مشرقان . والأمر كذلك بالنسبة للمغرب أو للبحر أو للزوج أو للثقل أو للجنة ، فـهما مغربان وبحران وزوجان وثقلان والجنتين .

ومن هنا نفهم لماذا يتحدث القرآن الكريـم فـى هـذه الـسورة عـن جنتيـن ، ولـم يتحدث عن جنة أو جنات كما هو الشان فى سور كثيرة . إن المثنى هنـا يفـرض نفسـه على صيغ السورة ، وإن فكرة الزوجية تنعكس فى الحديث عن الجنتين .

ويتكرر الحديث عن الجنتين هنا مرتين : المرة الأولـى عـن الجنتيـن المعدتيـن لمن خاف مقام ربه . والأخرى عن الجنتين لمن كان فى مقام دون ذلك المقام .

ويستمر الحديث ، سواء فى المرة الأولى أو المرة الأخرى ، عن الجنتين بصيغـة المثنى . ففى المرة الأولى يصف الجنتين بأنهما ذواتا أفنان ، وفيهما عينان تجريان ، وفيهما من كل فاكهة زوجـان . أمـا فـى المـرة الأخـرى فـهو يصـف الجنتيـن بأنـهما مدهامتان ، وفيهما عينان نضاختان .

إن كلتا الجنتيـن شـىء جميـل ، وإن الحديـث عنـهما يكـاد يكـون متسـاويًا . فالآيات التى تتحدث عن الجنتين فى الموضع الأول تبلغ ثمانى آيات . وهى متساوية فى العدد مع الآيات التى تتحدث عن الجنتين فى الموضع الآخر ، والتى تبلغ كذلـك ثمانى آيات .

إن الحديث عن الجنتين فى الموضعين متقاربـان ومتسـاويان . إن فكـرة المثنـى تفرض نفسها ليس على السورة فحسب ، ولكن على الجنتين أيضًا فهما جنتان وليسـتا جنة واحدة ، وهما يتكرران فى موضعين وليس فى موضع واحد . وأوصافهما متسـاوية فى العدد ، سواء أكان ذلك فى الموضع الأول أم فى الموضع الآخر .

* * *

وفى ظل ذلك نعى تكرار الآية الكريمة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ لتؤكد صيغة التثنية المنبثة فى تلك السورة .

لقد وقف المفسرون عند هذه الآية الكريمة وقفة مضمونية ، ورأوا أنها تتكرر عقب كل نعمة ، لتأكيد نعم الله على خلقه .

ليس حتمًا أن هذه الآية تأتى عقب كل نعمة ، فهى قد جاءت عقب الحديث عن جهنم ، وعقب الحديث عن الشواظ والنار .

ولكنها فى الحقيقة تتكرر لتأكيد فكرة الثنائية ، ولتأكيد فكرة الثنائية ، إنها كالقرار الرئيس فى السورة يشد الأذن ويؤكد الإيقاع .

والأمر كذلك مع سورة « المرسلات » ، فإن الآية الكريمة ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ تتكرر لوظيفة صوتية ، وليس حتمًا أن ترد هذه الآية فى كل مرة من باب التهديد والوعيد .

حقًا إن الأغلب فى ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ، من باب التهديد والوعيد كما تفيده كلمة (ويل) . وحقًا إن الأغلب فى ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ من باب التذكير بنعم الله ، كما تفيده الكلمة (آلاء) . ولكن التكرار ، سواء فى سورة المرسلات أو فى سورة الرحمن . يتجاوز الدلالة المضمونية ليتحول إلى وظيفة صوتية .

* * *

انعكست فكرة الوسطية بمعنى الزوجية ، على البنية التركيبية لسورة الرحمن . وقد رصدنا ذلك فى أمرين هما :

١- التركيز على المثنى ، كالمشرقين والمغربين والبحرين والجنتين ، لأن المثنى هو الصيغة النحوية التى تلخص فكرة الزوجية (الذات والآخر) فى مقابل المفرد الذى يعنى الذات وحدها ، وفى مقابل الجمع الذى يعنى الكثرة التى تضيع الذات فى غمارها . أما المثنى فهو صيغة وسطى تجمع بين الطرفين : الأنا والآخر .

٢- تكرار الآية الكريمة ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، التى تحتوى على علامتين من علامات التثنية : إحداهما الضمير المتصل باسم الجلالة . والآخر ألف المثنى المسندة إلى الفعل .

إن تكرار هذه الآية الكريمة مرات كثيرة يصبح كالقرار الرئيس ، الذى يصاحب السورة من أولها إلى آخرها ، ويؤكد فكرة التثنية التى هى المعادل النحوى أو اللغوى لفكرة الزوجية بمعنى الوسطية التى تجمع بين الشىء وما يقابله .

وقد تكررت هذه الآية بحكمة وقدر ، فالنسفى يذكر أنها وردت إحدى وثلاثين مرة ، منها ثمانى مرات عقب آيات تتحدث عن عجائب خلق الله ، وسبع عقب آيات تتحدث عن النار ، وثمان عقب الآيات التى تتحدث عن الجنتين الأوليين . وثمان عقب الآيات التى تتحدث عن الجنتين الأخريين .

إن التساوى فى عدد هذه الآيات بين الجنتين الأوليين والجنتين الأخريين ، يؤكد فكرة المقابلة والتماثل والمساواة التى ذكرناها فيما سبق . ويدل على أن تكرار هذه الآية إنما يتم بحكمة وقدر .

ولا يقف الأمر عند هذين الشيئين بل يمكن أن نضيف إليهما أمورًا أخرى تتمثل فى :

١- ألف المثنى ، أو ألف الفاعل التى تستند إلى الفعل المضارع ، فيما يدرج تحت مسمى الأفعال الخمسة ، وذلك مثل : تنتصران ، تجريان ، تكذبان ، وقد تكررت ألف تكذبان إحدى وثلاثين مرة حسب إحصاء النسفى .

٢- ألف التثنية التى تتصل بالأسماء فى حالة الرفع ، ويقابلها ياء التثنية التى تتصل بالأسماء فى حالتى النصب والجر ، وذلك مثل : المشرقين ، المغربين ، البحرين ، الثقلان ، جنتان ، ذواتا أفنان ، عينان ، زوجان ، الجنتين ، جنتان ، مدهامتان ، عينان ، نضاختان . وقد تكررت هذه العلامة ، سواء أكانت فى حالة الرفع أو فى حالة النصب والجر ثلاث عشرة مرة منها تسع مرات مع الألف فى حالة الرفع ، وأربع مرات مع الياء فى حالتى النصب أو الجر ، إن الألف فى حالة الرفع تغلب على الياء فى حالتى النصب والجر ، وذلك مراعاة للفاصلة التى تلعب دورًا كبيرًا وموسيقيًا فى تلك السورة .

٣- ضمير المثنى الذى يأتى فى محل جر ، سواء عن طريق الإضافة أو عن طريق حروف الجر ، وسواء أكان متصلاً أو منفصلاً ، وذلك مثل : عليكما ، فيهما ، ربكما . وقد تكررت كلمة « ربكما » إحدى وثلاثين مرة حسب الإحصاء السابق .

* * *

ولا يقتصر الأمر على هذه التثنية ، التى تتمثل فى الكلمة الواحدة ، والتى نجد لها مرجعًا فى كتب النحو واللغة . فإن هناك نوعًا آخر من التثنية ، يتمثل فى العطف على الاسم باسم ثان ، كما فى التراكيب الآتية :

الشمس والقمر - النجم والشجر - السماء والأرض - الإنسان والجان - الصلصال والنار - البحر والأعلام - النواصى والأقدام - الجلال والإكرام . فمثل هذه التراكيب تلحق بالتثنية لأنها عن طريق العطف تفيد الاثنين وتجاور بين المتقابلين .

* * *

وهناك نوع من التثنية يتجاوز الكلمة الواحدة أو الكلمتين إلى الجملة وما يقابلها ، كما فى الأمثلة الآتية :

« الشمس والقمر بحسبان » فى مقابل « النجم والشجر يسجدان » .

« والسماء رفعها ووضع الميزان » فى مقابل جملة « والأرض وضعها للأنام » .

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار » فى مقابل جملة « وخلق الجان من مارج من نار » .

« كل من عليها فان » فى مقابل جملة « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

ففى مثل هذه الجمل نجد الشىء مع ما يقابله ، ليس فى كلمة أو كلمتين ، ولكن فى جملة وجملتين .

هذا هو الإعجاز القرآنى الذى يبلغ منتهاه ، حين نجد الدلالة تنعكس على الصيغة اللغوية . لا أريد فى هذا المجال أن أردد المصطلحات المعاصرة ، بأن المضمون يخلق شكله ، والشكل يخلق مضمونه ، وأنهما - أى الشكل والمضمون - يتخلقان فى رؤية واحدة ، لا نستطيع أن نفصل أحدهما عن الآخر - لا أريد أن أردد هذه المصطلحات النقدية ، فالقرآن الكريم قد سبقها بكثير . إن سورة الرحمن قد انعكست دلالتها المضمونية على بنيتها اللغوية والتركيبية ، وتضامنت المعانى مع المبانى فى اتساق واحد .

آية النور

لا شرقية ولا غربية
هى وسطية

الآية رقم ٣٥ من سورة النور ، تتشابه مع آية الوسطية فى سورة البقـرة ، فكلاهمـا بحث عن الخصوصية ، وكلاهما اكتشاف لجذور الخصوصية .

تشير هذه الآية إلى النور الذاتى ، الذى لا يستمده ضوءه مـن مصـدر خـارجى ، إنه نور منه فيه ، يستمد من ذاته ، لا يحجبه شئ ، ولا يمنع ضـوءه شـىء ، ولا يتحكـم فيه شىء . يضئ ولو لم تمسسـه نـار ، لأنـه لا يحتـاج إلـى مصـدر خـارجى ، يمنحـه الإشعاع .

ومن هنا يبدو هذا النور ذا طبقات ، طبقة وراء طبقة ، وكل طبقـة تسـنده وتمـده وتضاعف من قوته ، فهو كمشكاة ، فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة ، وبذلك يكـون نورهـا أصفـى وأتـم كمـا يقـول المفسرون ، لأنها شجرة زيتونة ، لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضئ ولو لـم تمسسـه نار ، نور على نور .

وتعبير « لا شرقية ولا غربية » يجعلنا مباشرة فى قلب الوسطية بمعناهـا القرآنـى . والمفسرون يرون أن هذا التعبير يعنـى أنـها لا شرقيـة وحدهـا ، ولا غربيـة وحدهـا ، ولكنها شرقية وغربية معًا أى أنها تجمع بين الأمرين متجاورين فلا تركز على أحدهمـا وتتجاهل الآخر .

وهذا أمر يتوارد عند علماء اللغة كثيرًا حينما ينفون الأمرين معًا . وهـم يعنـون نفى أن يستقل أحدهما عن الآخر . وإثبات أنهما يجتمعان معًا ، كما تقول « فلان لا مسافر ولا مقيم » إذا كان يكثر من الإقامة ، فهو ليس فى حال سفر فقط وليس فى حالة إقامة فقط . بل هو فى حالة حل وترحال يجمع بين السفر والإقامة ، فلا يقيـم أبـدًا ولا يسافر أبدًا فهو لا يركن إلى حالة تغنيه عن الأخرى ، فعينه دائمًا علـى الحـالتين فـهو

كاليقظان النائم ، حينما يكون فى حالة سفر نحو الإقامة ، وحينما يكون فى حالة إقامة يتطلع نحو السفر .

وذلك هو مفهوم الوسطية فى التراث العربى الإسلامى فهى تجمع بين الأمرين لا تسكن عند أحدهما وتنفى الآخر . ولا تنفيهما معًا من أجل نقطة وسطى يصل إليها بطريقة رياضية شرحها أرسطو وتنتهى به إلى حالة عقلية ساكنة ، ولكنها دائمًا تجمع بين الأمرين ، ليس فى صورة توفيقية تخلو من الخصوصية والذاتية ، ولكنها فى صورة حركية تنتقل بين الأمرين ، كالجوال الذى هو دائمًا فى حالة سفر فهو لا مسافر ولا مقيم بل هو فى حل وترحال وفى حركة دائبة .

إن الشجرة المباركة كما فى الآية الكريمة لا شرقية ولا غربية ، لأنها شرقية وغربية ، لا تكتفى بالشرق عن الغرب ولا بالغرب عن الشرق ، ولا تنظر بعين واحدة وتقفل الأخرى ، انها تنظر بالعينين ، وتجمع بين الأمرين فى مقام من الحركة تنتقل به من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق ، فهى لا شرقية ولا غربية لأنها فى حالة حركة تجمع بين الشرق والغرب كالجوال الذى لا يهدأ ، فهو ليس بمسافر ولا مقيم لأنه فى حركة دائبة تجمع بين الحل والترحال .

* * *

الوسطية إذن لا شرقية ولا غربية ، بمعنى أنها شرقية وغربية معًا ، ولعل هذا يفسر فكرة التقابل فى القرآن الكريم ، إن كلمة « النور » بالتعريف تأتى فى مقابل كلمة « الظلمات » بالتعريف أيضًا ، فقد وردت مفردة « النور » ثلاث عشرة مرة منها إحدى عشرة مرة فى مقابل « الظلمات » ووردت مفردة الكلمات أربع عشر مرة منها إحدى عشر فى مقابل « النور » .

إن فكرة التقابل هنا تؤكد من جديد نظرية الوسطية التى تنظر بالعينين وتجمع بين الطرفين ولكن هذا لا يعنى استواء الأمرين ، فالنور لا يتساوى مع الظلمات والمسلم حين يفتح عينه على النور والظلمات ، لا يعنى أنه مطالب باتخاذ موقف وسط بينهما ، فلا وسطية بين الخير والشر ، ولكنه يعنى أن المسلم يعترف بوجود الشر ويفطن لألاعيبه ، حقًا هو ينتصر للنور . ولكنه فى الوقت نفسه يعى الموقف بصورته المتكاملة ،

ويعى قانون الحياة ، التى تضم النور والظلمات ، والخير والشر ، ويعى أنه لا يستطيع أن ينتصر للنور والخير ، إلا بعد أن يدرس أسلحة الظلمات والشر .

تحدثت آية النور عن نور الله ، الذى يملأ أقطار الأرض ، ويشع فى صورة قوية ، فهو كالمصباح داخل المشكاة والمصباح فى زجاجة ، والزجاجة كأنها الكوكب الدرى . يأتى من شجرة مباركة زيتونة ، تتنسم هواء الشرق والغرب معًا ، وكل هذا يضاعف قوته ويحيله إلى نور على نور ، وتشير هذه الآية فى نهايتها إلى أن هذا النور هو طريق الهداية والخير .

وتأتى الآية رقم ٤٠ تتحدث فى المقابل عن الظلمات ولا تكتفى بمجرد الإشارة إلى المقابل ، ولكنها تقدم صورة للظلمات فى مقابل صورة النور .

إن آية النور تتحدث عن طبقات النور ، بعضها فوق بعض فهو نور على نور . وتأتى آية الظلمات فتتحدث عن طبقات للظلمة فهى كبحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ، فالمقابلة تسرى إلى أجزاء الصورة فى أبعادها المختلفة وتنتهى هذه الآية فتشير أيضًا إلى طريق الظلمات هو طريق من طردهم الله من رحمته وهدايته .

إن النور بأل التعريف هو رمز للمسلم الذى هداه الله للطريق الصحيح ، وإن الظلمات بأل التعريف هى رمز للكافر الذى لم يجعل الله له نورًا ، أما المنافق فإن رمزه النور الزائف و الخادع الذى تشير إليه الآيات الكريمة فى سورة البقرة وهى تتحدث عن المنافقين .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ(١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ(١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ(١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

إن المسلم يمثل الطرف الأول الصحيح والواضح فى موقفه ، وإن الكافر يمثل الطرف الآخر غير الصحيح والواضح فى موقفه أيضًا ، أما المنافق فهو يمثل الطرف

المريض الذى يحاول أن يجمع بين الطرفيـــن دون موقـف ، فيكـون جـزاؤه مـن جنـس العمل نور زائف يوقعه فى التخبط والحيرة .

سورة النور تحدثت عن الأطراف الثلاثة ، أو هذه الفرق الثلاثة علـى حـد تعبـير النسفى . الذى يشرح هذه الفرق بأن فرقة صدقت ظاهرًا وكذبت باطنًا ، وهم المنافقون ، وفرقة صدقت ظاهرًا وباطنًا وهم المخلصون . وفرقة كذبت ظاهرًا وباطنًا وهم الكافرون . ويذكر النسفى أن السورة بدأت بالحديث عن المنافقين ، منذ الآيـة رقـم / ٤٧ التـى تقول ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِــكَ وَمَـا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ وحتى الآية رقـم / ٥٠ ﴿ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴾ .

فهذه الآيات تصف المنافقين بأنهم غير مؤمنين وبأنهم هم الظالمون ، وهى صفات تنطبق أيضًا على الكافرين لأن المنافقين كفار ولكنـهم أشـد خطـرًا ، فالكـافر يمكـن تجنبه ومعرفة ردود أفعاله ، أما المنافق فهو غدار يظـهر مـا لا يبطـن ، ومـن هنـا نـرى القرآن الكريم يهتم كثيرًا بأمر المنافقين . فسورة البقرة تحدثت عن المنافقين ، أكـثر مما تحدثت عـن المؤمنيـن وعـن الكـافرين ، وسـورة النـور بـدأت فـى هـذه الآيـات بالحديث عن المنافقين . قبل أن تبدأ بالحديث عن المؤمنين وعن الكافرين .

إن القرآن يصدق بعضه بعضًا ، ويفسر بعضه بعضًا ، فسـورة البقـرة تحدثـت عـن النور الزائف للمنافقين . أما سورة النور فقد تحدثت عـن المؤمنيـن ، الذيـن هداهـم لنوره الواضح الذى يملأ السموات والأرض ثم تحدثت – فى مقابل ذلك – عن الذين كفروا ، وشبهت أعمالهم بأمرين :

١- كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا .

٢- كظلمات فى بحر لجىّ .

إن الظلمات هى الرمز الواضح للكافرين فى مقابل « النور » وهو الرمـز الواضـح للمؤمنين ، أما السراب فهو النور الزائف أو على حد تعبير النسفى « هو ما يـرى فـى الفلاة من ضوء الشمس وقـت الظـهر يسـرى علـى وجـه الأرض كأنـه مـاء يجـرى » ، فالسراب هو رمز للنور الزائف وحسب اجتهادى فى تفسير هـذه الآيـة نـور المنـافقين

الذين يخادعون الله ويظهرون خلاف ما يبطنون فيخدعهم الله بنور زائف خلاف النور الحقيقى وشبيه بالنور الذى تحدثت عنه سورة البقرة فى آيات المنافقين ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ .

حقًا إن الآية صريحة فى ذكر « الذين كفروا » ولكن المنافقين يمكن ان ينطووا تحت الذين كفروا ، فكلاهما ليسوا بمؤمنين وكلاهما فريق واحد يمثل معسكر الشر والباطل فى مقابل معسكر الخير والحق ، وكل ما بينهما من فرق أن الكافر واضح فى موقفه فرمز القرآن الكريم له بالظلمات . أما المنافق فهو مريض ملتو فرمز له القرآن بالنور الزائف .

وبذلك تغطى هذه الآيات (من ٣٥ إلى ٤٠) أمر الأطراف الثلاثة ، وتعطى لكل فرد أجره المناسب ، وهو النور الصريح الذى يشبه الكوكب الدرى والنور الزائف الذى يشبه السراب الخادع أو الظلمات التى كأنها بحر لجىّ وكل هذا يمهد للحديث عن الفرق الثلاثة التى أشار إليها النسفى وهو يفسر الآيات فى (٤٧ إلى ٥٠) التى بدأت بالحديث عن المنافقين الذين صدقوا ظاهرًا وكذبوا باطنًا وثنى بالحديث على المؤمنين الذين صدقوا ظاهرًا وباطنًا وختمت بالحديث عن الكافرين الذين كذبوا ظاهرًا وباطنًا .

* * *

منذ البداية ذكرنا أن آية النور تتشابه مع آية الوسطية كلاهما بحث عن الخصوصية وكلاهما اكتشاف لحدود الخصوصية .

وقد ذكرنا فيما سبق أن آية النور لا تكتفى فالجميع من الآخرين كالوعاء الذى يقيم داخله الأشياء للحفظ والصيانة ولكنها تجمع بين الأخرى فى مقام فى الحركة يمنحها من الخصوصية ما يحيل عملية الجمع إلى أمر جديد ليس هو الأمرين معًا ، وليس هو مختلفًا عنهما لكى يبدأ منها بعد أن يمنحها بصمته الخاصة . هذا فيما يتعلق بالبحث عن الخصوصية فإن آية النور مثل آية الوسطية تشير إلى جذور هذه الخصوصية .

مهدت سورة البقرة بالحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهما يرفعان القواعد من البيت ويبشران برسول من العرب من ذرية إبراهيم وإسماعيل يحيى

دين الحنفية ويخلصه من الانحرافات التى ألصقها به الأحبار والرهبان ، وكل هذا يعنى أن الوسطية تمتد جذورها إلى الحنفية التى بشر بها إبراهيم عليه السلام وحمل لواءها ذريته من بعده ، وتمثلت فى ذلك التيار الدينى الذى تعاقب فى الديانات السماوية ، ووقف فى مقابل الفلسفات المادية والتيار الوثنى .

والأمر كذلك بالنسبة لآية النور ، فالكوكب الدرى الذى يوقد من شجرة مباركة . لا شرقية ولا غربية ولكنها وسطية ، إنما يرسل أشعته فى بيوت أذن اللّه أن ترفع « فالجار والمجرور » يتعلقان بقوله تعالى فى آية النور « كمشكاة » مما يعنى أن المصباح هنا يشتعل فى بيوت اللّه التى يسبح فيها رجال لا تلهيهم تجارة ، ولا بيع عن هدفهم الدينى ، إن التعبير « ترفع » يستحضر فى الذهن صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يرفعان القواعد من البيت لا يشغلهما عن الهدف تجارة ولا بيع يحركهما اليقين الدينى والعقيدة الخالصة .

إن القرآن يصدق بعضه بعضًا فهو شئ واحد وكأنه أنزل فى لحظة واحدة ، ولعل هذا يؤكد ما قاله بعض العلماء فى أن القرآن أنزل جملة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقًا ومنجمًا حسب الحوادث والوقائع . فكل آية تصدق الأخرى ولا تختلف معها ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ إن آية الوسطية مثل آية النور بحث عن الخصوصية ، واكتشاف لجذور هذه الخصوصية وتشابه فى الصورة والمفردات وكأنهما أنزلا معًا فى لحظة واحدة . على الرغم من أن البعد الزمنى التاريخى ، الذى يفصل بين آية نزلت فى سورة بالمدينة وآية نزلت بعدها بكثير .

آية الفتح
ومقام الكمال

يضع ابن الجوزية اليهودية فى مقام الجلال . وهو يشير بذلك إلى جانب الشدة فى الديانة اليهودية ، ويضع النصرانية فى مقام الجمال ، وهو يشير بذلك إلى جانب الرحمة فى الديانة النصرانية .

وإذ انتقلنا خطوة بعد هذا التعبير من ابن الجوزية ، لقلنا إن اليهودية تتطلع إلى مقام الرحمة لكى تكتمل . وإن النصرانية تتطلع إلى مقام الشدة لكى تكتمل وإن الديانتين السماويتين تتطلعان إلى مقام ثالث . يسميه ابن الجوزية مقام الكمال الذى يجمع بين الجلال والجمال معًا ، ويحقق المثل الأعلى الذى تتطلع إليه كل ديانة .

كانت الإنسانية فى عهد اليهود مهيأة لمقام القوة ، وكانت الإنسانية فى عهد النصرانية مهيأة لمقام الرحمة ، إن قول المسيح عليه السلام ، « سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن وأما أنا فأقول لك لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضًا » إن هذا القول من المسيح عليه السلام يلخص المرحلتين التاريخيتين ، مرحلة تقوم على القصاص ، والمرحلة الأخرى رد فعل لها ، وتقوم على الحب والتسامح .

ثم تطورت الإنسانية مرحلة جديدة ، لا تركز على جانب كرد فعل للجانب الآخر ، بل تجمع بين الجانبين ، جانب القوة والرحمة ، والعدالة والتسامح ، وهذا هو ما تصف به الآية الأخيرة فى سورة الفتح ، محمدًا وأصحابه بأنهم ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ وهذا مقام الكمال ، الذى يجمع بين الجلال والكمال فى أنظومة جديدة تتناسب مع التطور التاريخى للبشرية فى مرحلتها الجديدة .

تقول الآية الكريمة فى نهاية سورة الفتح :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ

فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

قد لا نكون مغالين لو قلنا إن هـذه الآيـة خـلال هـذا التعبـير القرآنـى المعجـز لخصت كل هذه المراحل التاريخية التى مرت بها البشرية وهى تنشد المثل الأعلـى . فمثل المسلمين فى التوراة صورة التبتل والعبادة والطهر والسجود والبحث عن الرضـوان . أو بعبارة أخرى أن هذه السورة تشير إلى الجانب الذى تفتقده التـوراة ، وتتطلـع إليـه كمثل أعلى . ومثل المسلمين فى الإنجيل كـزرع أخـرج شطـأه أو بعبـارة أخـرى : إن صورة المسلمين فى الإنجيل تشير إلى جانب القوة الذى يتطلـع إليـه الإنجيـل كمثـل أعلى ، والذى تعكسه مفردات مثل فآزره فاستغلظ فاستوى علـى سـوقه يعجـب الـزراع ليغيظ بهم الكفار .

إن التوراة تتطلع نحو الجانب الذى ينقصها لكى تصل إلى المثل الأعلـى الـذى تنشده . وإن الإنجيل يتطلع نحو الجانب الذى ينقصه لكى يصـل إلـى المثـل الأعلـى الذى ينشده . وقد تحقق هذا المثل الأعلى فى ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ فـهـم يجمعون بين الطرفين فى مقام جديد . فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، أو بعبارة أخرى هم يجمعون بين الشدة والرحمة ، يجد عندهم أهل التوراة جانب الرحمة التـى يفتقدونها ويتطلعون إليها كمثال يبغون السـير نحـوه ، ويجـد عندهـم أهـل الإنجيـل جانب القوة التى يفتقدونها ويتطلعون إليها كمثل أعلى يبغون السير نحوه .

* * *

نزلت سورة الفتح والمسلمون يطرقون أبواب مكة ويتوقون للطواف مصداقًا لرؤيـا الرسول ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِيـــنَ لَا تَخَافُونَ ﴾ .

احتدمت المشاعر فى نفوس المسلمين وهم على أبـواب بلدهـم الحبيـب مسـقط رءوسهم ومدرج طفولتهم ، إنها أحب البلاد إليهم لولا أن أهلها أخرجوهم ، وهـاهم ينتصرون فى المناوشات الأولى على قريش ، وعما قليل ستفتح مكة لـهم أبوابـها بعـد

غيبة طويلة وسيلتقون بالأهل والخلان ، وبقية من المسلمين ظلت هناك تقبض على دينها كالقابض على جمر .

وعلى الجانب الآخر غلت الدماء فى نفوس المشركين وثارت لديهم الحمية الجاهلية وروح الانتقام ، إنهم سادة العرب وسدنة البيت تخشاهم كل القبائل فكيف يتجرأ هؤلاء المسلمون ويدقون عليهم الأبواب ويفتحون عليهم البيت .

كان الموقف عصيبًا يؤذن بانفجار شديد وكان الرسول ﷺ يثق فى نصر الله وفى صدق وعده . ولكنه كان يعرف أن الثمن غال لو استجاب لهذه المشاعر المحتدمة فدماء الأقارب سوف تسيل ، والثارات سوف تستيقظ وهناك فى الجانب الآخر رجال من المسلمين قد تصيبهم معرة بغير علم وسوف يكون لكل هذا مردود على الدعوة الإسلامية إلى السلام ومقاومته الإحن والثارات ، إنه لن يستجيب لهذه المشاعر المحتدمة ، وسوف يرجى الفتح حين تحين الثمرة ، وسوف يدخل البيت الحرام دون هذا الثمن الغالى، الذى يغطى بمرارته على كل فرحة ومن هنا يهديه الله بأن يقبل عرض قريش بالصلح . وسوف تخلى له قريش فى العام القادم مكة ، ويدخل المسجد الحرام هو وصحبه آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون .

ثارت نفوس المسلمين من جديد فهم على أبواب مكة وقاب قوسين من البيت العتيق ، وعما قليل ستتحقق الرؤيا الحق التى وعد الله بها رسوله ، وسيدخلون المسجد الحرام ويلتقون بالأهل والخلان ، وتأتى اتفاقية الصلح فتحول بينهم وبين كل هذه الآمال ، ثارت النفوس وهاجت ، ولكن سورة الفتح تنزل أو تنزل فيها آيات من السكينة فكأنها البرد يطفئ النيران المتأججة .

* * *

يذكر ابن الجوزية أن آيات السكينة ، تنزل وقت الاضطراب فتهدئ النفوس ، وتغرس فيها الطمأنينة والصمود ، ويستشهد على ذلك بيوم الهجرة . إذ هو وصاحبه فى الغار ، والعدو فوق رءوسهم إنها لحظة حرجة ، ولكن الله ينزل سكينته على رسوله ، ويقول لصاحبه « لا تحزن إن الله معنا » .

وإذا رحنا نتابع آيات السكينة التى وردت فى القرآن الكريم ، نجدها ستًا هى

حسب الترتيب الذى ورد فى « فهرست ألفاظ القرآن الكريم » :

﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ البقرة (٢٤٨)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا ﴾ الفتح (٤)

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح (١٨)

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة (٢٦)

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ التوبة (٤٠)

﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الفتح (٢٦)

وسياق هذه الآيات يؤكد ما ذكره ابن الجوزية ، فكلها فى مواضع القلق والاضطراب ، خمس منها فى معارك حربية ، والسادسة يوم الهجرة . إن النفوس فى مثل هذه الظروف تكون عادة مضطربة ولكن الله ينصر معسكر الحق ، وينزل سكينته على القلوب بردًا وسلامًا . إن السكينة تتضمن الحركة فى وجه من وجوهها . ولكنها حركة منظمة ، فهى مقام جديد اسمه السكينة يحمل معنى الوسطية بين السكون والحركة ، فهى لم تأت إلغاء للحركة . ولا قتلاً للمشاعر ، فهى فى الوقت نفسه لم تدع إلى السكون والجمود ، ولكنها حركة تجمع بين القلق والبرد ، وبين الاضطراب والاطمئنان ، فى مقام جديد اسمه السكينة .

وقد جاءت الآية رقم / ٢٦ فى سورة الفتح ، لتتحدث عن السكينة فى مقابل ما نسميه الحمية الجاهلية ، وهى الانفعال والاندفاع أو بعبارة أخرى هى التطرف فى المشاعر ، وهى بذلك غير السكينة التى تعنى الاعتدال فى المشاعر ، فى مقابل الحمية من ناحية والجمود من ناحية أخرى .

فالسكينة إذن تحمل معنى الوسطية ، كما تحمل كلمة « الصراط المستقيم » فى سورة الفاتحة معنى الوسطية . فإذا كان الصراط المستقيم يفسر بأنه طريق الوسطية ، أو طريق الذين أنعم الله عليهم بين تطرفين تطرف المغضوب عليهم من ناحية ، وتطرف الضالين من الناحية الأخرى . فإن السكينة أيضًا تعنى وسطية المشاعر بين تطرفين ، تطرف الحمية الجاهلية من ناحية ، وتطرف السكون والجمود من ناحية . ومن هنا نجد

أن آيتين فى سورة الفتح « الآية / ٢ والآية / ٢٠ » ، تتحدثان عن الصراط المستقيم فى سياق الحديث عن السكينة .

إن تحليل مفردات هذا الصراط المستقيم والسكينة ، فى مقابل مفردات مثل حمية الجاهلية ، تجعلنا فى مواجهة الوسطية مقابل تطرفاتها التى حذر منها القرآن الكريم .

* * *

إن سورة الفتح نزلت فى لحظة تاريخية تضطرب فيها المشاعر وقد استطاعت عن طريق السكينة أن تصنع رجالاً يرتفعون عن مستوى تلك اللحظة ومرشحين لحمل أمانة الوسطية .

ومن هنا تأتى آية الكمال فى نهاية السورة نتيجة لهذه الرؤيا التى تجمع بين الأمرين فى مقام واحد ، ويتطلع إليهم أهل التوراة لكى يلتمسوا عندهم مقام الجمال . ويتطلع إليهم أهل الإنجيل ليلتمسوا عندهم مقام الجلال . أو بعبارة أخرى : تحول المسلمون إلى نموذج للكمال أو مثل عليا يرجع إليهم كل فريق يلتمس عندهم الجانب الذى ينقصهم .

سورة النجم
بين البقاء والفناء

هناك ثلاث اتجاهات تحدد العلاقة بين عالم الأمر وعالم الخلق ، أو بين البشر والذات الإلهية ، وهى :

الاتجاه الأول يضخم من عالم الألوهية ويجعلها تسيطر على كل شئ ، وقد تمثل هذا الاتجاه فى فلسفة « وحدة الوجود » ، وهى الفلسفة التى تلغى عالم البشر وتجعل الله حالاً فى كل شئ .

والاتجاه الثانى يضخم من عالم الخلق ، ويجعله مستقلاً عن الذات الإلهية ، فهو عالم قائم بنفسه ، لا شأن للذات الإلهية به وقد تمثل هذا الاتجاه فى الفلسفة المادية التى تركز على المادة وعلى البشر ، وتلغى عالم الأمر وعالم الذات الإلهية .

أما الاتجاه الثالث فيتمثل فى فكرة الوسطية التى تقيم توازنًا بين العالمين ، فلا تلغى البشرية ، ولا تلغى الذات الإلهية ، وتقييم بينهما نوعًا من العلاقة تحتفظ باستقلالية كل جانب ، فللذات الإلهية عالمها الخاص وللبشر عالمهم الخاص ، ولكن هناك ارتباطًا بينهما يتمثل فيما سماه الغزالى بوحدة المشاهدة ، وهى وحدة تختلف عن وحدة الوجود ، لأنها لا تلغى عالم البشرية ، بل تحتفظ باستقلاليته ، ولا تجعل الذات الإلهية أو الدين بعيدة عن معترك وشئون البشر .

* * *

وسورة النجم تنتصر لهذا الاتجاه الثالث الذى يقيم توازنًا بين مقام الفناء ومقام البقاء . فالسورة فى أولها تتحدث عن قصة معراج النبى ﷺ إلى السموات العلا ، ومشاهداته للصور السماوية والآيات الربانية . ومن هنا امتلأت هذه السورة فى أولها بالمفردات السماوية التى تنتزع البشر من عالمهم المادى الواقعى ، إلى عالم ما هو فوق الواقع . وذلك مثل المفردات الآتية :

النجم - هوى - وحى - يوحى - الأفق - الأعلى - سدرة المنتهى ، وغير ذلك من مفردات تتصل بالعالم الأعلى .

ولكن النبى ﷺ لم يفن فى المشاهد الإلهية ، بل احتفظ بمسافة بين العالمين ، تمكنه من أن يلتقط الأوامر الإلهية وأن يتعامل مع الوحى ، وأن يعود بعد ذلك إلى الأرض لكى يبلغ الرسالة ويدعوا البشر إلى التمسك بما أوجبه الوحى وما تلقاه فى تلك الرحلة السماوية .

ولقد وردت فى نهاية القصة آية تلخص هذا الموقف الذى يجمع بين العالمين ، دون أن يضخم عالم الفناء ، أو أن يضخم عالم البقاء ، وهى الآية الكريمة التى تقول : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ بمعنى أن البصر لم يقصر فى الإحاطة بهذه المشاهد العليا ، وهو فى الوقت نفسه لم يتجاوزها ولم يفرض عليها من الشطحات ما يبعدها عن مقصدها .

* * *

وهذا هو موقف الإسلام مما يسمونه التصوف . فالتصوف الإسلامى لا يلغى الدنيا ، ولا يجعل المرء يطرح الواجبات والمسئولية ، لأنه يقيم توازنًا بين الدنيا والدين . ومن هنا فإن كثيرًا من المذاهب الغريبة التى انتشرت فى العالم الإسلامى تحت عنوان التصوف نراها بعيدة عن التوازن الإسلامى . وكثير منها مذاهب غريبة وردت من الحضارات الأخرى ، مثل حضارة الهند والحضارة الإغريقية ، وارتدت هذا الثوب الإسلامى ، مع أنها فى جوهرها بعيدة كل البعد عن الإسلام لأنها فى النهاية تضخم عالمًا على حساب العالم الآخر وتنسى التوازن بين الأمرين .

وهذا هو المفهوم الصحيح لما يسمونه التصوف فى الإسلام وهو مفهوم يجمع بين الواقعية والمثالية فى مقام واحد . ومن هنا نستطيع أن نصحح بعض كلام الفلاسفة الغربيين حول التصوف الإسلامى ، فنيكلسون مثلاً يزعم بأن هناك تصوفين فى الإسلام ، تصوفًا موجبًا ، وتصوفًا سلبيًا ، وهو يرى أن التصوف الموجب فى الدنيا هو الذى يهتم بالدنيا وعنصر المقاومة . هو لا يتناسى الزهد ولكن الزهد فى هذه الحالة لا يبعده عن متطلبات الحياة ، أما التصوف السالب فى الإسلام فهو ذلك التصوف الذى

ارتدى ثياب الرهبانية وابتعد عن الدنيا ، وضخم الجوانب الروحية على حساب الجوانب المادية ، وعندى أن كلام نيكلسون عن التصوف الإيجابى فى الإسلام هو الكلام الصحيح ، أما فكرة التصوف السالب كما شرحها فهى لا تحسب على الإسلام ، لأن الإسلام منها برئ ، وهى من تأثيرات النظريات الوافدة من الفكر الإغريقى أو من الفكر الهندى ، ومثل هذا الكلام الذى قلناه عن نيكلسون يمكن أن نقوله عن أراجون أيضًا ، فقد زعم أراجون أيضًا ، فقد زعم أراجون أن والده كان عربيًا وكان يؤمن بالتصوف الإسلامى المثالى . ورأى أراجون أنه يريد أن يقيم التصوف على قدميه وأن ينقل تصوف أبيه من المثالية إلى الواقعية ، كما نقل ماركس الديالكتيك الهيجلى من المثالية إلى الواقعية . ومن هنا يرى أراجون أن تصوفه ينتقل من المثالية إلى الواقعية ، وأنه فى هذه الحالة سيوجه تصوفه إلى المرأة رمزًا للحب والخلود والقيم . إن ما قاله أراجون عن التصوف الإسلامى المثالى الذى كان يعتنقه والده بعيد كل البعد عن التصوف الإسلامى ، فالتصوف الإسلامى ليس مثاليًا فحسب ، ولكنه تصوف واقعى يريد أن يحقق المثالية فى الدنيا وبين الناس ، وحينما عرج النبى ﷺ إلى السموات العليا ، عاد ممتلئًا بالمثل والروحانيات ، وأراد أن يحققها بين عالم الناس ، وأن يقيم توازنًا بين المثالية والمادية ، وحينما نتلو الأسماء الحسنى التى وردت فى القرآن الكريم لا نتلوها للتعبد فحسب أو للمثالية فحسب ، إنما نتلوها لكى نحققها بين الناس وفى الحياة الدنيا ، فالله غفور والبشر أيضًا يجب أن يتصفوا بالمغفرة ، والله قوى والبشر أيضًا يجب أن يتصفوا بالقوة ، فالأسماء الحسنى تحمل فى ثناياها جانبًا واقعيًا يحقق المثل والقيم فى الحياة الدنيا .

إن فكرة اتخاذ المرأة رمزًا للتصوف الواقعى ، انتقلت بإلحاح إلى الشعر العربى الحديث وإلى الأغانى العربية الحديثة ، التى تمحورت فى معظمها حول المرأة رمزًا للقيم وللحب . ولكن مثل هذا التمحور يدل من ناحية أخرى على ان التصوف الحديث أو الفكر الحديث بنوع عام أصبح يضخم الواقعية ، ويقيم من عالم المرأة بديلاً عن عالم القيم والمثل ، وهذا يعنى من ناحية أخرى وثنية من نوع جديد ، تدور حول الإنسان ، وهى واقعية أو وثنية تختلف عن الفكر العربى القديم والصحيح والذى يتمثل فى التصوف الإسلامى الذى يدور حول القيم والمثاليات ويحققها فى الحياة

الدنيا ويجعلها ملتصقة بالإنسان ، وليست بديلة عن الإنسان ، إن الفارس العربى القديم فى العصر الجاهلى كان يحقق قيمه وفتوته ، وكان يشهد حبيبته على قوته وعلى فروسيته التى تتغلب على الأعداء وعلى الوحوش المفترسة وعلى حيوانات الصحراء التى يصارعها ويخرج منها فى النهاية فارسًا ظافرًا قويًا ، وإن المجاهد العربى كان ينطلق فى رحاب الدنيا لكى يحقق مثله وقيمه ومعه امرأته وأهله ممن يحبهم ، يدافع عن عقيدته وعن أهله وعرضه وماله ، إنه يريد أن يحقق قيمه ومثله فى الحياة الدنيا .

سورة الشمس
ومقام الحركة

لاحظت السيدة عائشة رضى الله عنها (البخارى ١٨٥/٦) ، أن هناك فروقًا بين الآيات المكية والآيات المدنية ، فالآيات المكية تهتم بذكر الجنة والنار ، أما الآيات المدنية فإنها تفصل فى ذكر الحلال والحرام . والقرآن الكريم بهذا المنهج الحكيم ينتقل بالنفوس البشرية من مرحلة إلى مرحلة ، ويعطى لكل مرحلة مقتضياتها ، أو على حد تعبير السيدة عائشة رضى الله عنها :

« ولو نزل أول شىء (لا تشربوا الخمر) ، لقالوا لا ندع الخمر أبدًا . ولو نزل (لا تزنوا) لقالوا لا ندع الزنى أبدًا » .

والملاحظة نفسها يمكن أن ترد بصدد منهج الإسلام فى تصوره للوسطية ، والتدرج بهذا المنهج من مرحلة إلى مرحلة .

فالآيات المكية تحاول أن تحيى الوسطية فى نفوس الصحابة والمسلمين ، وذلك من خلال ملاحظة الزوجية بين الأشياء وخلال الظواهر الطبيعية ، ويمكن أن نفهم ذلك من خلال تحليل سورة الشمس .

أما الآيات المدنية فإنها انتقلت من مرحلة المشاعر والوجدانيات إلى مرحلة الوعى بالوسطية ، والكشف عن جذورها وملابساتها . ويمكن أن نفهم ذلك من تحليل آية الوسطية فى سورة البقرة .

* * *

تبدأ سورة الشمس بلفت النظر نحو الظواهر الطبيعية المتقابلة والمتناظرة ، أو بلفت النظر نحو الثنائية فى حد ذاتها . بل يدفع إلى ملاحظة الحركة بين هذه الظواهر ، فذلك خلال استخدام الضمير : « ها » ، الذى يربط بين هذه الظواهر برباط معنوى ، يعود فيه الضمير فى الآيات الأربعة الأولى إلى شىء واحد وهو الشمس ، التى تمثل مركز الحركة ، فالقمر يتلوها ، والنهار يجليها ، والليل يغشاها .

أما الرباط الجمالى فيبين فى مراعاة فاصلة واحدة من أول السورة إلى آخرها ، مما يضفى عليها إيقاعًا واحدًا ، يؤدى دوره فى وحدة السورة واتساقها .

ولا يقف القرآن الكريم عند ملاحظة هذه الحركة فى الظواهر الطبيعية الخارجية . بل يضيف إليها لمسة جديدة تتناسب مع هدفه فى إحياء فكرة الوسطية داخل نفوس المسلمين . فينقل هذه الحركة من الطبيعة الصامتة إلى النفس البشرية . ويلفت النظر إلى الطبيعة البشرية ، التى فطرت على أن يتصارع داخلها عنصر الخير (التقوى) مع عنصر الشر (الفجور) .

ثم يدفع المسلم إلى اتخاذ موقف إيجابى من هذا الصراع ، فلا يكتفى بمجرد الرصد الذى يقوم على الحيادية التامة ، بل يدفعه إلى تبنى موقف ينتصر فيه للخير ضد الشر ، ويرى أن هذا الموقف هو طريق الفلاح والنماء ، على عكس الموقف الآخر الذى يجر إلى الخيبة والخسران .

وتأتى السورة فى النهاية لتنتصر لطريق الخير فى صراعه ضد الشر ، وتضرب مثالاً على ذلك بموقف صالح عليه السلام من قومه ، فإن قومه مالوا إلى الطغيان والتطرف ، وعقروا الناقة ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها .

* * *

وتحيا الوسطية فى قلوب المسلمين ، ويحسون بها فى الظواهر الطبيعية حولهم ، ويعيشونها فى أنفسهم وسلوكهم . وهنا تكون الفرصة مواتية لكى ينتقل بهم القرآن الكريم من مرحلة الإحساس والوجدانيات إلى مرحلة الوعى بالوسطية . لقد هاجر المسلمون إلى المدينة ، وأصبح لهم مجتمعهم الخاص ، ولابد إذن من رسم الطريق أمام هذا المجتمع وتوضيح معالمه . وتنزل آية الوسطية فى أول سورة بالمدينة لتفصل هذه الخاصية ، وتجعلها من مميزات الأمة الإسلامية ، وترتد بها إلى جذورها الأصلية . وترصد الانحرافات التاريخية والسلوكية عن هذه الأصول ، لتعود بها نقية مبرأة من الاستغلال والاحتكار ، ولتمثل خاصية تصنع التاريخ وتحقق المستقبل .

إن فكرة المقابلة بين الأشياء لا تقتصر على سورة الشمس فحسب ، بل هى تضرب بجذورها بآيات كثيرة من القرآن الكريم . ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بسورة

محمد التى تكثر فيها المتقابلات وخاصة بين المفردات .

إن هذه المتقابلات لا تعود إلى فكرة الثنائية التى عرفت فى الحضارات السابقة ، ومثلت الصراع بين الظلام والنور والخير والشر كما هو الحال فى الثانوية الفارسية . إن فكرة المقابلة بين الأشياء فى القرآن الكريم إنما تعود إلى فكرة الزوجية التى نص عليها القرآن الكريم فى آيات كثيرة ، وهى فكرة تجعلها مميزة عن الثنائية القديمة ، لأن الثنائية تقوم على مجرد الرصد بين المتقابلات ، أما الزوجية فإنها تضيف إلى الرصد فكرة الحركة بين المتقابلات .

إن فكرة الحركة بين المتقابلات تظهر بصورة واضحة فى كثير من الآيات القرآنية مثل الآيات التى تتحدث عن أن الله يولج الليل فى النهار ، أو الآيات التى تتحدث عن الأرض اليابسة والتى تخضر ، أو الآيات التى تتحدث عن الحركة بين الظل والشمس فى سورة الفرقان ، أو الآية التى وردت فى سورة الحج وتتحدث عن أن الله ينسخ ما يلقى الشيطان ويحكم آياته وغير ذلك من آيات تراعى فكرة الحركة التى أشارت إليها سورة الشمس فى أولها كما ذكرنا فى تحليلها السابق ، والتى اتخذت من الضمير « ها » رابطة تربط بين هذه المتقابلات .

والحركة بين هذه المتقابلات دقيقة وحرجة ، لأنها تعيش داخل المتقابلات والمتضادات ، والمسلم مأمور بأن يثبت موقفه على الصراط المستقيم الذى هو أشبه بالشعرة الرقيقة ، ومن هنا يحتاج إلى رعاية الله ويحتاج إلى الوعى بهذا الموقف حتى يتماسك . إن آية وردت فى سورة يس تذكر أن الحركة على الصراط المستقيم تحتاج إلى عناية الله الذى لو يشاء لطمس على أعينهم فاستبقوا الصراط ، وهذا تطرف ، ولو يشاء لمسخناهم على مكانتهم ، وهذا تطرف أيضًا يعنى الجمود ، بل المطلوب هو الموقف الوسطى الذى لا يتطرف فى ناحية على حساب الناحية الأخرى .

ومن هنا نجد بعض التعبيرات القرآنية التى تعبر عن الحركة فى صورتها الدقيقة ، قد تبدو عند من لا يفهم أن هذه التعبيرات غير حاسمة ، ولكنها فى حقيقة الأمر هى الوجه الآخر لهذه الحركة الدقيقة ، والتى تحتاج إلى وعى ، فمثلاً فى أول سورة المزمل ﴿ قُمْ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً(٢) نصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً(٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ ومثلاً آخر حين يقول الله تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّـهِ ﴾ وبعدها يقول

﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ومثلاً في سورة الإنسان ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً[٢٩] وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ ومثل هذا أيضًا يرد فى سورة التكوير ، وغير ذلك من تعبيرات تبدو عند المتسرع أنها غير حاسمة ، ولكنها فى حقيقة الأمر مقصودة ، لأنها تحوم حول الشيء ، وتستنفر فى الإنسان قوة الاختيار ، وتدفعه إلى أن يتخذ موقفًا إزاء المتقابلات يقوم على الحرية والاختيار ، وتؤكد فكرة الاجتهاد التى أكدها الإسلام بعد ذلك ، وهو اجتهاد يقوم على الاختيار بين الأشياء المتقابلة وعلى الموقف الذى ينبنى على الحرية والاختيار .

* * *

سورة الضحى
ومقام الرضا

« حصاد الهشيم » هو عنوان كتاب للمازنى ، على نسق عناوين كتبه مثل : « قبض الريح » ، و « خيوط العنكبوت » .

انتهى حصاد الهشيم بالمازنى إلى درب العبثية ، الذى يتساوى فيه كل شىء . إن إبراهيم الكاتب فى روايته التى تحمل هذا الاسم ينتهى به الأمر إلى الإحساس بأن كل شىء متساوٍ ، وأن الحياة عبث ، مثلها مثل حصاد الهشيم وقبض الريح وخيوط العنكبوت .

إن المازنى هنا هو رمز لكثير من الكتاب العرب ، الذين وقعوا تحت دائرة المذهب العبثى ، الذى ازدهر فى أوروبا ، وخاصة بين الحربين العالميتين ، وانتهى به الأمر إلى فكرة العدمية ، التى تعنى أن كل شىء باطل وقبض الريح .

وظهرت عناوين كتب لمؤلفات إبداعية ونقدية وفكرية ، تدور حول فكرة العبثية والعدمية ، وتوالت مفردات من مثل الغريب ، واللامنتمى ، وما بعد اللامنتمى ، والغثيان ، والطاعون ، والسخط والعنف ، والمومس الفاضلة ، والجحيم هو الآخر ، والأرض الخراب ، والبحث عن الزمن المفقود ، وسقوط الحضارة ، وغير ذلك من عناوين ومفردات لأعمال إبداعية ونقدية مثلت الحضارة الغربية وترددت فى مختلف الإبداعات الفنية والأدبية .

وترددت فى معظم هذه الأعمال مفردات تدور حول الرعب والإحباط والاكتئاب والسقوط . ومن هنا نجد الإنسان فى هذه الأعمال يسقط والأمل يختفى ، لأن كل شىء يتساوى ، والإنسان يطفو فوق السطح دون جذور تحميه وتثبته . إن الطفل وهو رمز الأمل والمستقبل يختنق فى كثير من هذه الأعمال ، فبعض الأعمال تلقيه تحت عجلات قطار سريع وبعضها تلقيه فى نهر صاخب لكى يختفى ويضيع بين تيارات الماء .

وكان لابد من هذه النتيجة تعبيرًا عن حضارة فقدت غايتها ، وعربد فيها شيطان المادة ، ولهذا قتل قابيل أخاه دون إحساس بالندم أو محاولة لإصلاح الخطأ ، إن مثل هذه الأعمال إنما جاءت تعبيرًا عن أزمة حضارية خانقة ، هى نتيجة لظروف تاريخية وثقافية انتهت إلى الحروب والتدمير فى مجال السياسة ، وإلى الإحباط والفشل فى مجال الثقافة والفكر والأدب .

وقد تسرب هذا المذهب إلى مصر والعالم العربى ، وازدهر بنوع خاص فى فترة الستينات من القرن العشرين ، ووجد من نكسة ١٩٦٧ ظروفًا مواتية شبيهة بالظروف التى مرت بها أوروبا خلال الحربين العالميتين ، واختلط بالعقد النفسية والإحباطات التاريخية والهزيمة العسكرية ، وردد مفردات الإحباط والفشل والخيبة ، وغير ذلك من مفردات توالت فى أعمال روائية وفنية وشعرية .

كانت هناك فرصة عقب هزيمة ١٩٦٧ لجيل الستينات أن يحللوا الهزيمة ، وأن يقيموا الواقع الفكرى والثقافى وأن ينتقلوا به إلى مرحلة جديدة تتغلب على الهزيمة ، وتقيم بناء الإنسان العربى من جديد ، بناء يقوم على موروثاته وجذوره ، ويستنفر عنده قوى المواجهة ، لكى يقاوموا الغزو الخارجى سواء كان فكريًا أو عسكريًا . ولكن جيل الستينيات لم يكن مهيئًا لهذا الدور بسبب النقص الشديد فى ثقافته ، فمعظم ثقافة هذا الجيل كانت تقوم على بعض المترجمات غير الدقيقة ، والتى انتشرت فى لبنان بنوع خاص ، وهى مترجمات كانت تقوم على المذهب العبثى ، وتنقل أعمالاً لها ظروف تاريخية وثقافية مختلفة ، أم ثقافة جيل الستينيات التراثية فقد كانت قليلة أيضًا ، لا تعود بنفسها إلى التراث وتكتشف ما فيها من جذور صالحة للبقاء ، فاكتفوا ببعض الأعمال المعاصرة التى تفسر التراث من وجهة نظرها ، ورجعوا فى كثير من الأحيان إلى آراء بعض المستشرقين التى تفهم التراث من وجهة نظرها ومن خلفيتها الثقافية ، ومن هنا فشل جيل الستينيات فى الإفادة من الهزيمة العسكرية ، وإعادة فتح الأوراق من جديد ، وظل الأدب يعتمد على المذاهب الغربية الوافدة ولم يحدث تغيير يذكر إلا فى بعض الأعمال الرائدة والقليلة ، لقد استورد جيل الرواد المذاهب الغربية التقليدية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وفعل جيل الستينيات الدور نفسه مع تغيير فى المذاهب التقليدية إلى المذهب العبثى

الذى ساد فى أوروبا وكان يمثل ثورة على الشكل التقليدى .

أما حصاد اليقين فهو حصاد الوسطية ، التى تعرف غايتها ، وتقاتل من أجل هذه الغاية ، وتقاوم كل ما يمس المبادرة الإنسانية ، والإنسان فى ظل الوسطية يعيش تحت العناية الإلهية ، إن أصابه خير شكر ، وإن أصابه شر صبر . وهو فى كلتا الحالتين مأجور لا يذهب عمله عبثًا . المهم أن يعمل وأن يستميت فى عمله ، حتى آخر نفس من حياته ، ثم يدع النتائج لله ، فهو له حكمته التى تخفى على عقول البشر . وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقد ترددت الوسطية بين مقام التوكل ومقام السكينة ، وكلا المقامين يتأثران بالوسطية ويؤثران فى الوسطية فى حركة تبرهن على صدق المذهب وفعالياته . إنه يخلق مصطلحاته من داخله ، وفى الوقت نفسه يجعل هذه المصطلحات امتدادًا تطبيقيًا للرؤية النظرية .

وكلا المقامين (التوكل والسكينة) ، يؤديان فى النهاية إلى حالة من اليقين ، وهى حالة تسلم ولا تستسلم ، وتقنع ولا تخضع ، وتتوكل ولا تتواكل . وباختصار هى تنبيه للخيط الدقيق أو الصراط المستقيم الذى يلتزم المنطقة الوسط ، ويحذر الانحرافات التى تحيط به من كل جانب .

* * *

انقطع الوحى عن النبى ﷺ فترة من الزمن ، تقول خلالها المشركون وأرجفوا وقالوا بان الله قد ودعه وقلاه ، وتنزل سورة الضحى لكى تطمئنه بأن اللـه معه ، وبأن العاقبة له ، ولكى تبعث فى قلبه مقام الرضا .

ويمكن أن نقسم هذه السورة إلى ثلاثة أقسام : قسم أول يطمئن النبى ﷺ ويبعث فى قلبه اليقين والرضا .

والقسم الثانى يعدد نعم الله على نبيه ﷺ . وقد كان يتيمًا فآواه ، وكان ضالاً فهداه ، وكان فقيرًا فأغناه . والمقصود بتعداد هذه النعم هو طمأنة النبى ﷺ وإخباره بان الله لم يتخل عنه أبدًا ، مما يبعث فى قلبه الثبات والصمود .

أما القسم الثالث من هذه السورة فهو يتحدث عن نتائج نعم الله على النبى ﷺ ، فإن كثيرًا من الناس حين يمرون بتجارب مريرة ثم ينقذهم الله من هذه التجارب ويرأف بهم – أقول فإن كثيرًا من الناس لا يقدرون نعم اللّــه ولا يعرفـون حقـها مـن الشكـر ، وتجعلهم التجارب المريرة يحقدون على الناس ويقسون عليهم . أما التجارب التى مر بها النبى ﷺ ووقف الله معه فيها ، فإنها بعثت فى قلب النبى ﷺ شكـر النعمـة وحـب الناس ، ومن هنا يقول الله له بألا يقهر اليتيم فقد ذاق مرارة اليتم ، وألا ينهر الســائل فقد ذاق مرارة الفقر ، وينهى السورة فيأمره بأن يتحدث عــن نعـم ربـه وهـذا هـو مقـام الشكر الذى تنتهى إليه هذه السورة الكريمة .

وتتآزر هذه الأقسام الثلاثة ، فتبعث فى قلب النبى ﷺ مقـام اليقيـن . وهـو مقـام يأتى نتيجة الطمأنينة والرضا والشكر على النعمة ، وغير ذلك من مقامات تحييها هـذه السورة من السور القرآنية ، فتجعل المرء يجابه الحياة بقوة وعزيمـة . إن أصابـه خـير شكر ، وإن أصابه شر صبر . وكل هذا يجعل المسلم فى حالة صمـود ومجابهـة ، فـلا يقع فى الإحباط والعبثية ووهدة اليأس وغير ذلك مــن مفـردات ذاعـت فـى المذاهـب الأوروبية وانتقلت إلينا من الغرب ، وكانت نتيجة لحالات مرضية وإحباطات تاريخيــة ، وصدامات عسكرية .

سورة الناس
ووسوسة الوسواس

تعمدت هذا العنوان برنينه الموسيقى وأحرفه المهموسة . لأنه يضعنا مباشرة فى قلب « سورة الناس » .

سورة الناس يتكرر فيها حرف السين عشر مرات ، وتتقارب هذه المرات وتتداخل ، فتحدث رنينًا يجسد صورة الوسوسة ، ويصبح معادلاً صوتيًا لحركة الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ويستعيذ من شره سائر الناس .

وتأتى النون بعد حرف السين ، فتتوالى وتتكرر ثمانى مرات ، وهو حرف نغمى ، يخرج من تجويف الأنف الذى يضخم من غنته ، ويتداخل مع حرف السين ، فيضاعف هذا فى صورة الوسوسة ، ويحيل بنية الحروف إلى معادل صوتى ، يلتحم بالمعنى ويجسده .

وتأتى بقية الحروف قريبة من مخارج حرف السين ، ونشير هنا بنوع خاص إلى حرف الشين فى كلمة « من شر » وإلى حرف الخاء فى كلمة « الخناس » وهما يردان تقريبًا فى منتصف السورة ، فيضاعفان من كمية الهواء ، التى تصاحب ، إن القرآن الكريم بهذا الإعجاز الصوتى فى مختلف سوره ، إنما يستثير عبقرية اللغة العربية فى الأداء ، ويوظف خصائصها الصوتية .

إن اللغة العربية هى لغة أذن ، منذ أن تشكلت فى عصور ما قبل الإسلام . ونطق بها الشاعر فى تفعيلات عروضية وإيقاعات لفظية ، ورواها الرواة من جيل إلى جيل ، وأنشدها المغنون ، وأرضت بذلك حاجة العرب الفنية ، واستغنى بها عن سائر الفنون الأخرى . ووجد عندها الموسيقى والكتلة والصورة والتشكيل .

إن حاسة الأذن اكثر تجريدية ، ومن ثم أكثر حرية من حاسة العين ، فالأخيرة ترتبط بالكتلة والمادة والأبعاد . أما الأذن فتحلق مع الصوت ، الذى يتخيله كل مستمع فى الصورة التى تتناسب مع قدراته وقدرته على التشخيص والتمثيل ، وهى

بذلك أقرب إلى الذوق العربى ، الذى ينفر من المادة والكتلة والتجسيد . ويميل إلى التجريد والتعميم .

* * *

وقد استثمر القرآن الكريم حاسة الأذن غاية الاستثمار ، فلجأ إلى معادل صوتى ، وبناء لفظى من حروف ومفردات وجمل ، يحول اللغة إلى كتلة صوتية ، يحسها كل مستمع ، ويصفها أحد المشركين بالحلاوة والطلاوة .

وبسبب هذه الحلاوة والطلاوة ، أصبح القرآن الكريم يرتل على الأسماع فى مختلف المناسبات ، وفى الأفراح والأتراح ، وينجذب الناس إلى تراتيله وإيقاعاته ، حتى إن لم يعوا تمامًا دلالاته وإشاراته .

حقًا . إن القرآن الكريم قد استثمر عبقرية اللغة العربية ، ولكنه فى الوقت نفسه غرس هذه العبقرية فى الوجدان العربى . هو بدأ من الذوق العربى ، واستثمر خصوصية هذا الذوق ، وفى الوقت نفسه أضاف إليه ونقاه ونماه . أو بعبارة أخرى : تحول إلى حلقة متماسكة داخل التاريخ العربى ، تتصل بما قبلها وبما بعدها ، ولا تتصادم مع ما قبلها ولا مع ما بعدها .

وهنا العبرة التاريخية . تساق إلى هؤلاء المعاصرين ، الذين يتصادمون مع الذوق العربى ، ومع خصوصية اللغة العربية ، ويقللون من المحسنات اللفظية ، والمعادلات الصوتية ، والرنين الموسيقى ، ويتحدثون عن عصر المطبعة والقراءة وحاسة العين . وعن وسائل جديدة تتوجه إلى القارئ وليس المستمع ، ومن ثم تتجه إلى التأمل والاستغراب فى الخيال ، وليس إلى الإنشاد والتراتيل والرنين اللفظى .

إن مثل هذه الدعوات تتصادم مع الذائقة العربية ، التى ترسبت على مدى الأجيال التاريخية . ومع عبقرية اللغة العربية فى توظيف البناء الصوتى . ومن ثم تظل مثل هذه الدعوات « صوت نفسها » ولا تستطيع أن تتحول إلى حلقة متماسكة ، تتصل بما قبلها وبما بعدها .

حقًا إن القرآن الكريم يستثمر الذائقة العربية ، التى تشكلت مع أجيال متراكمة ، ولكنه لا يقف عند البناء الجمالى الذى يستثمر عبقرية اللغة العربية ، بل يرتفع خلال

هذا الجمال ومن أجله ، إلى جور روحى تام .

وهذا هو ما يفصله عن سجع الكهان ، الذى كان يهمهم به بعض الكهنة فى العصر الجاهلى ، خلال تراكيب غامضة ، وأصوات لغوية تخلو من الروح وتـهدف قبل كـل شئ إلى تغييب المستمع ، وتحويله إلى أداة تلقين ، تطيـع ولا تنـاقش ، وتندمـج دون أن تشارك .

وقد وقف بعض المستشرقين عند المظهر الخارجى ، وراحوا يفترضون علاقة بين سجع الكهان وبين القرآن الكريم ، وادعوا بأن القرآن الكريم هو امتداد لسـجع الكـهان ، دون أن يسمح لهم تركيبهم الثقافى وحسهم التاريخى ، بتجاوز هذا المظهر الخـارجى ، واكتشاف الفرق الدقيق والجوهرى بين شـىء فـارغ يخلـو مـن المعنـى ، ويقـف عنـد الجلجلة الصوتية ، ويشبه الطبول التى تدق فى المناسبات المختلفة ، لإثارة المشـاعر ، وتغييب الوعى ، وبين شىء آخر يرتفع بحاسة الأذن إلى محل ربانى ، ويجعل الجمال اللفظى سلمًا يرتقى به إلى جمال روحى .

لقد استمع أبوبكر رضى الله عنه إلى مسـيلمة الكـذاب . فـأدرك بحسـه الصـادق الفرق الدقيق بين الحقيقة والزيف ، وقال عن كلام مسيلمة بأنه لم يصدر عن آل ، وهو يعنى بأنه كلام فارغ ، ينقصه ذلك الجانب الربانى ، الذى يرتفع بالكلمات المرصوصـة ، إلى جو متسام .

إن القرآن الكريم إذن يستخدم المنهج الوسطى ، الـذى لا يقـف عنـد الحـواس وحدها . وفى الوقت نفسه لا يتجاهلها كلية ، إنه يبـدأ منـها لـيرتفع بـها إلـى مجـال المثاليات .

وقد خضعت سورة الناس لهذه الوسطية ، فهى تستثمر الصوت اللغوى ، وتخاطب حاسة الأذن ، وترتفع بكل ذلك إلى قصة الصراع بين الخير والشر .

الخير يتمثل فى رب الناس ، والشر يتمثـل فـى الوسـواس الخنـاس ، والصـراع بينهما أبدى ودائم ، ولكن هذا لا يعنى أن السورة تقف عند حد رصد هذا الصـراع ، بل إنها تتخذ موقفًا واضحًا تدعو فيه إلى نصرة الخير ، وهزيمـة الشـر . والوسـطية لا تقف عند حد .

والوسطية فى سورة الناس لا تقف عند حد التزاوج بين الماديات والمعنويات ، أو بين الحواس والمثاليات ، ولكنها تنعكس أيضًا على بنية السورة : فآياتها ست ، ثلاث منها حول رب الناس ، وثلاث منها حول الوسواس الخناس .

تبدأ الآيات الثلاث الأولى فتستعيذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، ثم يأتى الثلاث الأخيرات فتحذر من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس .

ويذلك تنقسم السورة إلى قسمين متساويين ، يتعادل كل منهما مع الآخر ، وكأنهما حملا بعير إذا استعرنا التشبيه الذى أورده الفيروزبادى فى قاموسه الشهير .

وجعلناكم أزواجًا

تتوارد آيات كثير على معنى « الزوجية » من مثل قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ الأعراف (١٨٩) .

﴿ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ الرحمن (٥٢) .

﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ هود (٤٠) .

﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ الرعد (٣) .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ المؤمنون (٢٧) .

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ الذاريات (٤٩) .

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ النجم (٤٥) .

﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ القيامة (٣٩) .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ الزخرف (١٢) .

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ النحل (٧٢) .

﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ طه (٥٣) .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ الروم (٢١) .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ فاطر (١١) .

﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ الشورى (١١) .

وهذا التأكيد على صفة الوسطية يجعلنا فى قلب الوسطية القرآنية والتى هى فى حقيقتها بحث عن الآخر .

إن الاستغناء عن الآخر هو من صفات الألوهية ، فالله هو الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد .

وعالم الألوهية مستقل بذاته ، ليس كمثله شيء ، له أسماؤه الحسنى وصفاته الخاصة ، والله يستغنى بذاته عن أن تكون له صاحبة أو ولد ، أما عالم البشر فهو عالم الوسطية ، عالم الأنا والآخر ، عالم الذكر والأنثى ، عالم الشيء وما يقابله .

والوسطية لا تتحقق إلا في عالم البشر ، عالم الزوج . فما دام هناك شيء وما يقابله . ومادام هناك خيار بين أمرين ، فإن الوسطية في مثل هذه الحالة واردة . أما الأوامر والنواهي التي تصدر من الله ، فهي لا تقبل الوسطية ، فليس وسط بين الزنا والنكاح ، وليس هناك وسط بين السرقة والملكية .

فهناك إذن عالمان ، عالم الأمر وعالم الخلق ، والخلط بين العالمين هو خلط في الأوراق . فالبشر مطلوب أن يعيش عالمه ، وأن يمارس قوانينه . أما أن يتعدى البشر على عالم الآخر ، ويدعي أنه هو اله ، أو ما في الجبة إلا الله ، فهذا نوع من العبث ، يصل بصاحبه إلى حد الجنون .

وقد وقف أصحاب الوسطية من أهل السنة موقفًا حاسمًا من أصحاب الحلول والاتحاد . وحكموا على أصحابها باللغو والزندقة . لأنهم في التحليل الأخير ضد فكرة التوحيد . وضد فكرة الوسطية .

وأقول « ضد فكرة الوسطية » لأن هذه الفكرة تقوم على تصور عالمين ، عالم الأمر والخلق ، عالم الغيب والشهادة ، عالم الدنيا والدين ، عالم الله والبشر .

والمسلم يعيش هذين العالمين . ولا يحس البتة بالتناقض ، فأمام عالم الأمر مطلوب منه الاستسلام والأذعان ، والعمل بالأوامر واجتناب النواهي . ومع عالم الخلق مطلوب منه الموقف الوسطي . وأن يقف ضد التطرف وأن يتحول إلى نموذج يحتكم إليه الفرقاء .

وليس في هذا تناقض ، فلكل عالم تصوره ، ولا يبغي شيء على شيء بل إن هذا الموقف من المسلم قد حسم القضية من أساسها ، وقبل أن يحسمها أصحاب المذهب الإنساني في النهضة الأوروبية . والذين كفوا عن التفكير في الميتافزيقيات ، ووجهوا الذهن إلى التفكير في عالم الأرض والخلق .

مع فارق جوهري ، وهو أن المذهب الإنساني أوغل في البعد عن الدين وعالم

الأمر والغيب . وحصروا الإنسان فيما يقع تحت يده ، وأعلنوا موت الإلـه ، وأحـالوا العلم إلى إله جديد يعبث فى الأرض كيف يشاء . وبذلك وقعوا تحـت قبضـة الوثنيـة من جديد . ولكن فى صورة أخرى .

وهم بذلك لا يختلفون عن الحلوليـة ، وكـل مـا هنـالك أنـهم قلبـوا الـهرم . إن الحلوية قد نقلوا عالم الأمر إلى عالم الخلق ، هم لـم ينكـروا اللّـه ولكـن استأنسـوه وجعلوه يسعى حالاً فى البشر ، أما أصحاب الوصفية المنطقية فقد جمعوا مـن العلـم إلهًا ومن العقل ربًا .

* * *

وتأتى آيات الزوجية فى مقام التذكير بنعمة اللّه لأنها تؤدى إلى عمـارة الكـون . فالأنا وحده مشروع ناقص ، والزوج هو المشروع الكامل ، والكون هـو ذكـر وأنثـى ، وآدم لم يهبط إلى الأرض ولكنه هبط معه زوجه ، وبث منهما أزواجًا ، رجالاً ونساء .

وقد ورد وصف الزوج فى القرآن بأنه كريم أو بأنه بهيج . وهى صفات تدفع إلى « الزوجية » لأنها خطوة للاكتمال والبحث عن الآخر . وهى فى الوقت نفسه دعـوة إلـى محاربة العزلة أو الاكتفاء بالأنا . فالعزلة نقص يؤدى إلـى عـدم معرفـة الإنسـان نفسـه بنفسه « حقًا اعرف نفسك » كما يقال . ولكن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نفسه إلا من خلال الآخر . والذكر لا يكمل إلا مع الأنثى ، والأنثى لا تكمـل إلا مـع الذكـر ومـع اقترانهما يعمر الكون وتستمر الحياة .

وهنا الفرق الجوهرى بين الوسطية القرآنية ووسطية ارسطو ، إن سـمحنا لأنفسـنا بالمقارنة من باب التذكير وضرب المثل ، إن الوسطية القرآنية تتم فـى قلـب الحيـاة ، وداخل المتضادات النفسية والاجتماعية . أما وسطية أرسطو فـهى مـن بـاب التجريـد العقلى والمنطق الشكلى .

الوسطية القرآنية تدرك صعوبة القبض على الحقيقـة داخـل المتضـادات ، وتعـى أهمية التوازن على ما نسميه الصراط المستقيم ، وتتنبـه لحتميـة الصـراع بيـن الخيـر والشر ، وتتفطن للمحاذير التى تنبث على كل جانب من جوانـب الطريـق ، ومـن هنـا نراها تطلب الهداية من اللّه ، وتستعين به على أن يلهمها الحقيقة ، وتدعوه أن يحفـظ

التوازن على الطريق المستقيم ، الذى هو أرق من الشعرة وأحد من السيف فيما يقال .

أما وسطية أرسطو فهى قطعية لا تتصف بالخشية ولا بالرجاء ، لأنها تبحث عن نقطة رياضية بين صفحات الكتب ، وتستعين بالافتراضات الذهنية ، بعيدًا عن زحمة الحياة وعن التجربة الحقة .

الوسطية القرآنية تبحث عن الآخر وتكتمل به ، أما وسطية أرسطو فهى تتم داخل عقل الأنا ، وخلال حركة ذهنية ، الوسطية القرآنية تنتهى بصاحبها إلى السكينة التى تهذب الاضطراب والقلق ، أما وسطية أرسطو فهى تنتهى بصاحبها إلى سكون أشبه بسكون التماثيل الإغريقية .

بينهما برزخ

تتوارد آيات كثيرة حول معنى البحرين اللذين لا يلتقيان ، من مثل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ الفرقان (٥٣) .

﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ النمل (٦١) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فاطر (١٢) .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(١٩)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ(٢٠)فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٢١)يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ(٢٢)فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن (١٩ - ٢٣).

وقف كثير من المفسرين القدامى عند ظاهر المعنى فى الآيات السابقة عن البحرين اللذين لا يلتقيان ، ولم يدخلوا فى تفصيلات جغرافية كما فعل بعض المعاصرين ، فحدد موقع البحرين ، وعين البلد والمكان .

وهذا الموقف من القدامى منطقى إلى حد كبير ، فالقرآن الكريم ليس هو كتابًا فى الجغرافيا مثل بقية كتب البشر ، يحدد المواقع والتضاريس ، ويتحدث عن البلدان والأماكن ، هو حقًا لا يتضارب مع الحقائق العلمية ، ولكنه ينطلق منها نحو أهداف دينية .

إن الهدف الدينى الذى تلح عليه الآيات السابقة ، يتلخص فى الكشف عن قدرة الله التى تجمع بين النقيضين فى مقام واحد ، كما نرى فى مثال البحرين اللذين لا يستويان ، فهذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، ولكنهما مع ذلك يتجاوران ويتعايشان ، ولا يفسد أحدهما هوية الآخر .

وهنا نجد أنفسنا إزاء الملمح الجوهرى فى الوسطية القرآنية ، الذى يتمثل فى الخروج على المبدأ العقلى المقرر فى الفلسفة الإغريقية ، وهو مبدأ عدم الجمع بين النقيضين ، إن أرسطو فى وسطيته لا يحاول أن يجمع بين شيئين فى مقام واحد ، فقد يكونان متناقضين يستحيل الجمع بينهما من المنظور العقلى ، ولكنه يبحث عن شىء ثالث يتولد من الشيئين ، بعد أن يقضى على خصائصهما ، ويذيب تناقضهما .

أما الوسطية القرآنية فهى لا تنتمى إلى هذا التراث الإغريقى ، ولا تقف عند مسلماته الأولية ، هى حقًا تعترف بالعقل البشرى ولا تلغيه ، ولكنها تضعه فى حدوده المتاحة ، وتسمح لنفسها بأن تتجاوزه ، وبأن تكسر مبادئه العقلية ومسلماته المنطقية ، لأنها تؤمن بقوة أخرى ، تتجاوز المبادئ العقلية ، وتستطيع أن تجمع بين المتناقضات فى مقام واحد ، فهذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، ولكن الله يجمع بينهما ، كما نرى فى الظواهر الطبيعية أمام العين البشرية .

* * *

يلفت القرآن الكريم فى آياته المتفرقة خلال سوره الكثيرة النظر إلى الصورة التى تجمع بين النقيضين ، مثل الصورة التى تقدمها الآية الكريمة فى سورة يس ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ .

إن هذه الصورة التى تجمع بين المتناقضين ؛ الماء والنار ، تتوارد بطرق متعددة فى آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، فالله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، والأرض الجرداء يخرج منها الحب ، والأرض الميتة ينزل عليها الماء فتحيا وتهتز ، وغير ذلك من ظواهر طبيعية تتواثب أمام أعين المشاهد ، وتثبت قدرة الله على خرق المسلمات العقلية .

وحينما عرج النبى ﷺ إلى السماء السادسة ، رأى ملكًا نصفه من ثلج ونصفه من نار ، لا الثلج يطفئ النار ، ولا النار تذيب الثلج ، وكان يدعو له ولأمته ، ويسأل الله الذى ألف بين الثلج والنار ، أن يؤلف بين قلوب عباده المؤمنين .

وقد تبدو هذه الصورة غريبة عند من تعودوا على المألوف والمتداول من المسلمات العقلية ، ولكنها ليست غريبة بمنطق الوسطية القرآنية ، التى يتجاور فيها

الضدان الثلج والنار ، ويلتقى البحران الفرات والأجاج ، وكأن بينهما حاجزًا أو برزخًا من قدرة الله ، فلا النار تذيب الثلج ، ولا الثلج يطفئ النار .

* * *

وقد انتقل بعض المفسرين من الدلالة الواقعية لمعنى البحرين إلى دلالة رمزية ، فالرازى يقول عن الآية رقم ٦١ فى سورة النحل « المؤمن فى قلبه بحران : بحر الإيمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة ، وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزًا لكى لا يفسد أحدهما الآخر » ، ويقول عن الآية رقم ١٢ فى سورة فاطر « قال أكثر المفسرين ، إن المراد من الآية ضرب المثل فى حق الكفر والإيمان أو الكافر والمؤمن ، فالإيمان لا يشبه الكفر فى الحسن والنفع ، كما لا يشبه البحران العذب الفرات والملح الأجاج » .

ولعل تكرار القرآن الكريم لهذه الصور فى أكثر من موضع ، يؤكد هذا المعنى الذى قال به أكثر المفسرين على حد تعبير الرازى ، وهو معنى يركز على الهدف الدينى ، فالقرآن الكريم لا يشير إلى الحقائق الخارجية إلا بقدر ارتباطهما بتغيير داخل الإنسان ، أو بعبارة أخرى : هو ينطلق من الحقائق الخارجية جغرافية كانت أو غير جغرافية ، ليغرس من خلالها فى قلب المؤمن هدفًا دينيًا ، ومن هنا فإن تعبيرنا أول هذا الكلام « قد انتقل بعض المفسرين » ليس تعبيرًا دقيقًا ، فالفعل « انطلق » فى هذا الباب أفضل من الفعل « انتقل » لأن هؤلاء المفسرين لم يتجاهلوا الحقائق الجغرافية ، ولم يتنكروا للوقائع الخارجية ، ولكنهم انطلقوا منها إلى ما وراءها من معان رمزية وأهداف دينية ، هم لم يقفوا عند دلالاتها الوصفية فحسب ، ولم يعنوا أنفسهم بتفصيلات كثيرة عن موقع البحرين ، تبعدهم عن السياق القرآنى ، واكتشفوا معنى دينيًا ، يشير إلى فكرة الصراع بين الخير والشر ، وهى فكرة تتجاور داخل قلب المؤمن ، كما يتجاور البحران أمام مرأى العين .

وما دمنا نحن بصدد ضرب الأمثلة من الوقائع الخارجية ، والانطلاق منها إلى معان رمزية ، فلعل هذا يسمح لنا بأن نتخذ من صورة البحرين اللذين يتجاوران ولا يبغيان . مثلاً للوسطية العربية الإسلامية ، التى سبق أن شرحناها بالتفصيل فى الكتاب الأول من مشروع « الوسطية العربية » وقلنا إن تعبير « تجاور الأشياء مع تمايزها ،

هو المدخل الحقيقى لفهم هويتها ، لأنها تقدم الأشياء متجاورة ومتمايزة ، دون أن يفنى أحدهما فى الآخر ، أو يبغى أحدهما على الآخر » .

ومن هنا نجد الكثير من المفسرين يبرزون هذا المعنى الذى يقوم على فكرة التمايز ، يقول النسفى عن آية الفرقان : « مرج البحرين : خلاهما متجاورين متلاصقين ، وجعل بينهما برزخًا حائلاً من قدرته ، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج ، فهما فى الظاهر مختلطان ، وفى الحقيقة منفصلان » .

ويقول عن آية النحل : « وجعل بين البحرين : العذب والمالح حاجزًا مانعًا أن يختلطا » .

ويقول عن آية الرحمن : « مرج البحرين يلتقيان : أى أرسل البحر المالح والبحر العذب متجاورين متلاصقين لا فصل بين المائين فى مرأى العين ، بينهما برزخ حاجز من قدرة الله تعالى ، لا يبغيان : لا يتجاوزان حديهما ، ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة » .

إن المعنى لا يقف عند حد البحرين ، أو عند حد التجاور بينهما ، ولكن يتعداه إلى فكرة التمايز بين البحرين ، وهذا ما يشير إليه عنوان هذه الدراسة « وبينهما برزخ » ، وهو عنوان يشير إلى الحاجز أو الستر أو الحجاب ، أو غير ذلك من مفردات ، تنتهى فى النهاية إلى أن طرف البحر العذب مثلاً مستقل بنفسه ، ولا يختلط بالطرف الآخر البحر المالح مثلاً مقابلاً .

وهذا هو ما تميل إليه خصوصية الوسطية العربية أو الوسطية القرآنية ، فالأطراف فيها لا تتداخل ولا تمتزج ، إنها قائمة بنفسها مميزة ، حقًا هى متجاورة متلاصقة ، ولكن كل طرف يحتفظ بهويته ، ولا يفقد خصائصه بالممازجة والتداخل .

وهذه الخصوصية تجعل من الوسطية القرآنية مقابلاً لوسطية أرسطو ، التى تقوم على التداخل والمزج ، فكل طرف يفنى فى الآخر ، ويفقد هويته ، ويضيع الطرفان من أجل حالة ثالثة وجديدة .

إن العلاقة بين الهيولى والصورة عند أرسطو تصلح مثلاً لفهم وسطيته ، فهى علاقة تقوم على ما يسميه بفكرة المزج بمعنى أن الهيولى يمتزج بالصورة ، فيفسد كل

منهما الآخر ، وتضيع خصائصهما ، ويتحولان إلى طبيعة متوسطة بين طبيعتهما الأصليتين ، فتظهر الصورة الجديدة بالفعل ، وتبقى الصورتان الأوليان بالقوة ، ويشبه يوسف كرم تلك العلاقة بالماء ، الذى يمتزج فيه الأوكسجين بالأيدروجين ويفقد كل منهما خصوصيته ، ويشبهها الفلاسفة القدماء بالدهن فى السمسم والزيت فى الزيتون والزبدة فى اللبن .

إن فكرة التمايز فى مقابل فكرة التمازج ، هى المدخل الحقيقى لفهم الوسطية القرآنية فى مقابل وسطية أرسطو ، الأولى تقوم على استقلالية الأطراف ، كما يستقل البحران ، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، أما الأخرى فهى تقوم على امتزاج الأطراف ، كما يمتزج الهيولى بالصورة ، والأكسجين بالأيدروجين .

وقد ترتب على كل موقف نتائجه الخاصة به ، فوسطية أرسطو ميزت الفكر الإغريقى الغربى بالحركة ، التى تنتقل من الحالة القديمة إلى حالة جديدة ، بطريقة سريعة ومدمرة ، جعلت الكثير من هذه المجتمعات تفقد ثوابتها ، وتلهث وراء الشاذ والغريب .

أم الوسطية القرآنية فهى لا تطيح بالأطراف ، وتحتفظ بالثوابت ، وتجعل الجديد تبعًا لها دون أن يحطمها ، وهذا لا يعنى صفة الجمود كما قد يتوهم بعض المتسرعين : « ممن يصدرون عن الجدلية الدياليكتيكية الغربية ، ويرون أن الاحتفاظ بالأطراف مستقلة يعنى الجمود وتوقف الحركة .

من كل زوج بهيج

وردت آيتان تحت هذا العنوان ؛ الأولى فى سورة الحج رقم / ٥ وتقول :
﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ والأخرى فى سورة ق رقم / ٧ وتقول :
﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

ويقول النسفى عن الآية الأولى « من كل صنف حسن سار للناظرين » . ويقول عن الأخرى « نبهج به لحسنه » .

وقد وردت آيتان أخريان تحت عنوان « من كل زوج كريم » إحداهما فى سورة الشعراء رقم / ٧ وتقول : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ ، أما الأخرى فقد وردت فى سورة لقمان رقم / ١٠ وتقول : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ . ويقول النسفى عن آية الشعراء « محمود كثير المنفعة يأكل منه الناس والأنعام كالرجل الكريم الذى نفعه عام » .

نحن هنا فى لب الوسطية التى تراعى الأمرين ، فالطبيعة حولنا تتكون من زوج ، والزوج يثير هنا أمرين هما البهجة من ناحية والمنفعة من الناحية الأخرى ، إن الآيتين اللتين تصفان الزوج بأنه بهيج تلفتان النظر إلى الجانب الجمالى فى الطبيعة ، أما الآيتان اللتان تصفان الزوج بأنه كريم فهما تلفتان النظر إلى جانب المنفعة والفائدة الزوجية إذًا فى الظواهر الطبيعية تعطى زوجية فى نتائجها وتثير أمرين هما البهجة واللذة من ناحية والفائدة والمنفعة من الناحية الأخرى .

تلك هى المقدمة الأولى التى تتعلق بفكرة الزوجية فى الظواهر الطبيعية وما يترتب على هذه الفكرة من شعور مزدوج ، يجمع بين البهجة والمنفعة وفى وقت واحد .

أما المقدمة الثانية فهى تؤكد تلك النتيجة ولكن عن طريق آخر . مما يدل على صدق المقدمات والنتائج ، فأى طريق تسلكه ، يفضى بك فى النهاية إلى فكرة الوسطية بمعنى الزوجية ، وإلى ما يترتب على هذه الزوجية من نتائج مزدوجة أيضًا .

إن القرآن الكريم يوجه نظر الإنسان نحو الظواهر الطبيعية التى تحيط به من كل

جانب ، وهى مسخرة لخدمته فى أمرين مزدوجين ، تحقيق جانب البهجة الفنية من ناحية ، وتحقيق جانب المنفعة العملية من الناحية الأخرى .

إن متابعة مادة « الزينة » تؤكد هذا المعنى المزدوج فهى تأتى فى آيات كثيرة مقترنة مع الفائدة العملية كما فى قوله تعالى :

﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(٣١)قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف ٣١/٣٢ .

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ(١٦)وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ الحجر ١٦/١٧ .

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٨)وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النحل ٨/٩ .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ(٦)وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ﴾ الصافات ٦/٧ .

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ فصلت ١٢ .

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ الملك / ٥ .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ(٦)وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٧)تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٨)وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ(٩)وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ(١٠)رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ق / ٦-١١ .

إن الظواهر الطبيعية فى مثل هذه الآيات تتبدى فى أحسن منظر ، فالسماء تتزين

بالمصابيح والكواكب ، والأرض ينبت فيها كل زوج بهيج ، والمطر يهبط فيتحول الثرى إلى جنات وعيون ، والنخل باسقات تحمل ثمارها المرصوصة بجمال واستواء .

* * *

ولا يقف الأمر عند هذه الزينة البهيجة ، فإن هذه الظواهر مسخرة أيضًا لغرض آخر ، فالشهب ترجم الشياطين وتحفظ الأنس ، وتنصر الخير ، وتهزم الشر ، والزينة التى تعرض نفسها للناظرين ، تدفع فى الوقت نفسه إلى التأمل واستخلاص العبرة . والمطر الذى يثير البهجة ، يحيى الأرض ، ويخرج الرزق للعباد . والخيل والبغال والحمير وسائر الدواب مهيأة للركوب والزينة فى وقت واحد .

إن الآيتين فى سورة الأعراف تلخصان هذا الهدف المزدوج فالله قد سخر الكون لخدمة الإنسان فى أغراضه العملية والجمالية والإنسان مطالب بعد ذلك بتحقيق هذه الأغراض ، بأن يسعى فى الأرض ، ويعمر الكون ويستمتع بما فيه من زينة ومن طيبات للرزق ، إن الكون يتجلى فى أحسن زينة . تغرى الإنسان بالإقبال عليه ، دون خوف وإحساس بالخطيئة ودون عقد تحد من انطلاقته .

وإن لغة الكون هى لغة التسبيح والعبرة ، وليست هى لغة الشهوات والغرائز ، وإن صوت الحمام وهديل العصافير هى أدعية وترانيم ، وليست جنسية كما تزعم الفرويدية .

وإن الكون يفضى بأسراره لمن يتعرض لها ، وليس هو كونًا صامتًا جامدًا يثير الحيرة والاضطراب ، كما يعتقد أصحاب المدرسة العبثية .

إن العلاقة بين الإنسان والطبيعة هى علاقة حميمة ، فالكون مسخر لخدمة الإنسان عمليًا ووجدانيًا ، والإنسان مطالب بالوصول إلى أقصى غاية من هذا الهدف المنشود ، حتى يحقق حكمة الله من أجل خلق الكون والإنسان معًا .

إن هاتين المقدمتين تؤكدان نتيجة واحدة وهى أن الظواهر الطبيعية والكونية مهيأة من أجل مطالب الإنسان المادية والروحية .

وهذه النتيجة نلتقى بها من باب التطبيق فى الآيات الأولى من سورة النحل التى تؤكد على أن الكون مسخر لحوائج الإنسان العملية والجمالية فى وقت واحد ، فالأنعام فيها جمال ومنافع ، والخيل والبغال والحمير مهيأة للركوب وللزينة معًا ،

والبحر يلقى بـاللحم الشـهى وبحليـه الجميلـة . والأرض تنبـت الـزرع الـذى يحمـل الألوان المختلفة والثمرات المفيدة .

والأمر لا يتوقف فقط عند مجرد إرضاء هذه الحاجات العملية والوجدانيـة ، بـل يتعداه أيضًا إلى غاية سامية . تلمح إليها الآيات القرآنية . من خلال مفـردات تحمـل معانى قريبة وتوحى إلى معان بعيدة فـالدواب التـى قـد سـخرها اللـه لإرضـاء حاجـة الإنسان ، قد يصل بعضها إلى قصد السبيل ، وقد يضل بعضها سواء السبيل . والأمـر كذلك بالنسبة للإنسان ، منهم الضال ومنهم المهتدى ، إنه يخضع للنواميس الكونية ، مع فارق جوهرى يميزه عن كل الكائنات ، وهو أنه يملك من الوعى مـا يمكنـه مـن أن يتهيأ لنفحات الله ، حقًا ، على الله قصد السبيل ، ولكنـه لا يـهدى إلا مـن هـو أهـل للهداية .

إن هذا الجو الدينى الذى تصالح فيه إرادة الإنسان مع إرادة الله ، يسـيطر علـى تلك الآيات الأولى من سورة النحل ، فينقلها من مجرد رصـد للظواهـر الطبيعيـة إلـى بحث عن الحقيقة وراء هذه الظواهر .

وكل هذا يؤدى إلى العبرة الأخيرة ، وهو أن الفن لا يتمخض للجـانب الجمـالى فحسب ، بل هو مجموعة من أهداف شتى ترضى باجتماعها حاجات الإنسان المختلفة ، مادية أو روحية أو دينية ، فإذا كان هناك من يقول « الفن للفن » ، وهناك من يقول فى مقابل ذلك « الفن للحياة » فإنه يمكن القول بناء على المقدمات السابقة « الفن للفـن وللحياة معًا » ، وأكاد أضيف « ولما هو فوق الحياة أيضًا » .

النور والنار
وقصة الخلق

﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ ﴾ فالشر لازم لوجود الخير . والوسطية تجمع بين الخير والشر . لكن لا يعنى هذا على الإطلاق التحريض على الشر ، ولكنه يعنى الاعتراف بوجود الشر .

ومن هنا يصبح المؤمن كيسًا فطنًا كما جاء فى الحديث الشريف بمعنى أنه ليس غرًا ساذجًا ، يلقى على الواقع غلاله مزيفة ، إنه يعيش الواقع ، ويعيش عصره ، ويدرك أن الله قد خلق الشر متجاورًا مع الخير . وأن الشيطان يجرى مجرى الدم فى الإنسان .

والتطرف فى مثل هذه الحالة ، يتمثل فى أحد الطرفين ، طرف أول يمثل الخير المحض ، ويكون صاحبه من جنس الملائكة (النور) ، ممن يفترضون أن الواقع كله خير ، إنهم يفتقدون التجربة والممارسة العملية ، ويتعاملون مع الحياة من منظور واحد ، لا يدرك ما فى طبيعتها من صراع بين الخير والشر ، إنه ليس كيسًا فطنًا ، ولكنه « كيس قطن » كما يتندر بعض الظرفاء ، من هؤلاء المخدوعين ، الذين يعيشون فى برج من العاج ، يجترون الأحلام ويمضغون الأوهام .

أما الطرف الآخر فهو من جنس الشيطان ، (النار) إنه شر محض ، لا يرد الخير على قلبه ، ولا تخامره الرحمة أبدًا ، إنه نار موقدة ، ينفث الحقد والحسد كل حين .

أما الوسط (النور والنار) ، فهو الذى يجمع بين الخير والشر ، لا بمعنى أنه يمارس الشر كما يتبادر فى الوهلة الأولى ، ولكن بمعنى أنه يعترف بوجود الشر ، وبوجود الشيطان وبأن وظيفته الأولى فى الدنيا ، هى صراع الإنسان ، وتزيين الخطيئة له ، أو بعبارة أخرى يعترف بضرورة الصراع مع الشر ، وأنه من نواميس الحياة ، وأن هذا الصراع يشحذ همته ، ويستنفر قواه ، ويدفعه فى النهاية إلى الانتصار على الشر .

التطرف الأول (النور المحض / من جنس الملائكة ، ومن يتصف به من البشر فهو ليس من أهل الدنيا ، إنه يتمرد على طبيعته ، وينتمى إلى جنس غير جنسه ، ويقاوم

غرائزه ، ولا يعمر الكون ، وآخر المقامات عنده هو العزلة ، والبعد عن الحياة ، والخوف من الصراع ، والرهبنة والتشبه بالملائكة .

التطرف الثانى (النار المحض / فهو من جنس الشياطين ، ومن يتصف به من البشر ، فهو ينتمى إلى عالم غير عالمه ، فهو يفسد فى الأرض ، ويسفك الدماء ، وآخر المقامات عنده هو الكبرياء والاستعلاء ، والتشبيه بإبليس الذى تمرد على التواضع ، وأبى بأن يعترف بفضل الآخرين .

تبدأ هذه الآيات والملائكة لا يرحبون بخلق الإنسان ، لأنهم ينظرون بعين واحدة ، عين النور والخير ، ويخشون ما فى الإنسان من جوانب ضعف ، قد تبتعد به عن طريق العبادة والتسبيح والتقديس ، أو على حد قولهم ، ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

ونكتشف بعد قليل أن الحكمة الإلهية من خلق الإنسان قد غابت عن الملائكة ، فهم قد فطروا على النور ، لا يحسون بصراع ولا يغلبون جانبًا على جانب ، إنهم كالفراشات التى تمتص النور دون أن تعى عواقبه ، ومن ثم لم يستطيعوا معرفة الأسماء ولا اكتشاف قوانين الحياة ، وقالوا لله يعترفون بعجزهم ﴿ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ .

وفى مقابل ذلك ياتى موقف إبليس ، إنه ينظر بعين واحدة ، ويركز على « الأنا » ، ولا يعترف بوجود الآخر بجواره ، ولا يعترف لأحد بفضل أو موهبة ، فيأبى السجود لآدم ، فكيف يسجد من خلق من نار لمن هو قد خلق من تراب ، ويعميه كبرياؤه فلا يرى الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، وتكون النتيجة أن يطرد من رحمة الله وأن يظل معزولاً مرجومًا بالحجارة والحصى .

أما الإنسان فهو محور الارتكاز فى هذه الآيات من أولها إلى آخرها ، الملائكة تتحدث عنه فى أول الآيات ، والشيطان يتحداه فى آخرها ، وكل ذلك بسبب طبيعته التى تجمع بين النور والنار ، وتؤهله لأن يكون خليفة الله يحمل أمانته ، ويعمر أرضه .

وآدم مؤهل لذلك منذ التكوين الأول ، فقد علمه الله سر الأسماء ، واكتشاف الأشياء ، وألقى على قلبه كلمات فتاب عليه ، وحرره من عقدة الذنب ، فتطهر وهبط

إلى الأرض ، يدخل فى صراع مع الآخرين ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَـــدُوٌّ ﴾ ويعتمـد علـى اختياراته ومواقفه ، فقد يكون من أهل الهدى ، وقد يكون من أهل الكفر . هو حر فـى اختياره لأنه سيتحمل نتيجة اختياره ومواقفه ، وقد تكون النتيجة من أهل النور الأبدى ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد تكون من أصحاب النار هم فيها خـالدون ، إنها على أى حالة نتيجـة متوقفـة علـى عملـه واختيـاره . فـهو ليـس مخلوقًا مـن نـور الملائكة ، وليس مخلوقًا من نار كالشياطين ، إن عمله هو الذى يؤدى به إلـى هـذا أو ذاك .

الوسطية القرآنية
وظاهرة التقابل والتوافق

كثيرًا ما يذكر الشيء في القرآن الكريم ويذكر معه ما يقابله سواء كان هذا المقابل مضادًا وهو ما يسمى عند علماء البديع بالطباق أو المقابلة ، أو كان غير مضاد ، وهو ما يسمى عندهم بمراعاة النظير[1] .

فالنور غالبًا ما يقترن بالظلام . والموت بالحياة ، والخير بالشر ، والحي بالميت ، والإيمان بالكفر ، والجنة بالنار ، والسماء بالأرض ، والشمس بالقمر ، والذكر بالأنثى ، وغير ذلك من متقابلات تتوارد بكثرة ، وتمثل ظاهرة لافتة ، تدفع الباحث إلى الوقوف أمامها ، والكشف عن أسرارها .

النهار والليل :

وردت كلمة « النهار » ثمانٍ وخمسين مرة في القرآن الكريم ، مقترنة مع كلمة « الليل » إلا في أربع آيات وردت فيها كلمة النهار دون الليل وهذه الآيات هي :

﴿ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ ﴾ آل عمران (٧٢) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ ﴾ يونس (٤٥) .

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾ الأحقاف (٣٥) .

﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ المزمل (٧) .

ولكن عند التدقيق يلاحظ أن آية يونس وآية الأحقاف ، تتحدثان عن نهار يوم القيامة ، وهو اللحظة الزمنية التي يبعث فيها الناس ويقضى بينهم ، ولا تحتاج إلى

---

(١) الطباق عند علماء البديع يسمى بالتضاد أيضًا وهو أن يؤتى بمعنيين متقابلين في الجملة الواحدة مثل قوله تعالى : ﴿ وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود ﴾ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يذكر ما يقابلهما في أكثر من جملة ، مثل قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا ﴾ أما مراعاة النظير فيسمى أيضًا بالتناسب والائتلاف والتوفيق والتوافق ، وهو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه ، مثل قوله تعالى : ﴿ والشمس والقمر بحسبان ﴾ الإيضاح / ١٩٦ .

مقابل ، ولا يؤجل أمرهم إلى ليل أو نهار آخر .

والأمر كذلك فى آية آل عمران ، فهى تعنى اللحظة الزمنية القصيرة ، التى يتردد فيها المنافقون من الإيمان إلى الكفر ، دون ثبات وانتظار إلى لحظة أخرى .

أما آية المزمل ، فقد ذكر المقابل فى الآية قبلها ، التى تقول : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ .

وبعد هذه الملاحظات نتبين أن الأمر على إطلاقه ، وهو أن كلمة « النهار » تجر معها كلمة « الليل » ، وأن نعمة النهار تذكر بنعمة الليل ، ولا استثناء إلا فى حالات قليلة لها ما يبررها .

* * *

القمر والشمس :

وردت كلمة « القمر » فى القرآن الكريم سبعًا وعشرين مرة ، مقترنة مع كلمة الشمس ، ماعدا ست آيات وردت « القمر » فيها مفردة دون « الشمس » ، وهى :

﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ الأنعام (٧٧) .

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ يس (٣٩) .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ القمر (١)

﴿ كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴾ المدثر (٣٢/٣٤) .

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ الأنشقاق (١٨/١٩) .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ الفرقان (٦١) .

ولكن عند التدقيق نلاحظ أن آية الأنعام قد ورد المقابل فى الآية التى بعدها ﴿ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ﴾ والأمر كذلك فى آية يس فقد ورد المقابل فى الآية قبلها ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ .

أما الآية فى سورة القمر فهى تتحدث عن يوم القيامة ، وهو يوم لا مثيل له ولا يذكر بمقابل ، إنه زمن خاص خارج حدود البشرية ، وخارج العقل البشرى الذى يبحث عن المقابل أو النظير .

أما آية المدثر ، فإن كلمة « الصبح » فى الآية رقم / ٣٤ ، تأتى مقابلاً لكل من « القمر » و « الليل » فى الآيتين السابقتين لأنها ، أى كلمة الصبح ، تعنى الشمس فى مقابل القمر ، وتعنى النهار فى مقابل الليل ، وبذلك تظل فكرة المقابلة واردة لا تتخلف فى هذه الآيات .

أما كلمة « القمر » فى سورة الانشقاق ، فقد وردت فى سياق يؤكد فكرة المقابلة ، إن الآيات تقول ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ(١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ(١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ(١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ إن الفكرة التى تثيرها هذه الآيات هى فكرة اختلاف الألوان ومن هنا فالمقابلة لا تأتى بين الشمس والقمر ، ولا بين الليل والنهار ، ولكنها تأتى بين الألوان المتقابلة فالشفق يحمل ألوانًا متقابلة والليل بكل ما يحمله من ظلمة ، يأتى فى مقابل نور القمر إذا اكتمل وصار بدرًا ويؤكد هذا ما ذكره النسفى من أن الله أقسم بالبياض بعد الحمرة ، وأقسم بالليل وما جمعه من الظلمة والنجم ، وأقسم بالقمر إذا اتسق وتم بدرًا .

أما آية الفرقان فإن المقابلة فيها واردة غير حافلة ، فإن كلمة « شمسًا » محذوفة ، ويكون التقدير « وجعلنا فيها شمسًا كالسراج وقمرًا منيرًا » يقول النسفى فى تفسير كلمة « سراجًا » « يعنى الشمس لتوقدها » ومن ثم فإن فكرة المقابلة تفرض نفسها هنا ، ولا تتخلف عما هو متوقع .

وبعد هذه الملاحظات تبين لك أن القاعدة على عمومها وأن فكرة المقابلة بين الشمس والقمر واردة إلا فى استثناءات تؤكد القاعدة ولا تنفيها .

* * *

وغير ذلك من متقابلات تتوارد بكثرة فى القرآن الكريم ، فالذكر يتقابل مع الأنثى ، والدنيا مع الأخرى ، والنور مع الظلام ، والسماء مع الأرض ، مما يمثل ظاهرة لافتة للنظر ، وتؤكد على ان القرآن الكريم لا يقف عند الشيء وحده ، ولا عند الفرد ، بل هو دائمًا يبحث عن الآخر ، ويجعل حياة البشر قائمة على فكرة الزوجية ، فالله هو الواحد الأحد ليس كمثله شيء ، أما بقية الكائنات فهى من زوج ، كل منهما يبحث عن الآخر ، وكل منهما يتكامل مع الآخر .

وتسيطر هذه الظاهرة على بعض السور ، خاصة السور المكية القصار ، فسورة الشمس « مكية » توجه النظر نحو المتقابلات الآتية :

(شمس وقمر - ليل ونهار - سماء وأرض - فجور وتقوى - ثمود والرسول) .

وسورة الليل « مكية » تشير إلى المتقابلات الآتية :

(الليل والنهار - الذكر والأنثى - أعطى وبخل - صدق وكذب - اليسر والعسر - الآخرة والأولى - الأشقى والأتقى) . وسورة الغاشية « مكية » تهتم بالمتقابلات الآتية :

(خاشعة وناعمة - ناصية وراضية - نار حمية وجنة عالية - عين آنية وعين جارية - السماء كيف رفعت والأرض كيف سطحت - مذكر ومسيطر) .

وظاهرة التقابل فى القرآن الكريم تلقى بمردودها على البنية اللغوية ، فهى لا تقف عند حدود التقابل أو التوافق بين المعنى والآخر وهو محسن معنوى كما يقول علماء البديع . ولكن تلقى تأثيرها على البنية اللغوية ، خلال بعض المحسنات اللفظية ، التى لا حظها علماء البديع ، ووضعوا لها أسماء مثل الموازنة والجناس .

فالموازنة تعنى أن الكلمة التى تقابل الأخرى ، تكون مساوية لها فى الوزن ، كما فى قوله تعالى ﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ[15] وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أما الجناس فهو يعنى أن الكلمتين المتقابلتين متساويتان فى كل الحروف وهذا هو الجناس التام ، أو فى معظم الحروف وهذا هو الجناس الناقص .

إن ظاهرة التقابل فى القرآن الكريم لا تقف عند حدود المعنى فحسب ، بل نجدها فى حالات كثيرة تلقى بمردودها على اللفظ أيضًا ، مما يحدث تلاؤمًا ما بين المعنى واللفظ أو بين الدلالة والأداة كما يقول المعاصرون ، فالمعنى يخلق لفظه ، واللفظ يتخلق خلال المعنى وظاهرة التقابل هى محسن معنوى تعبر عن نفسها خلال البنية اللفظية وهنا يكون الإعجاز فاللفظ يأتى مطابقًا للمعنى ، والمعنى يتجسد خلال اللفظ ، فلا يكون هناك تنافر بين اللفظ والمعنى أو بين المضمون والشكل كما يقول المعاصرون .

* * *

إن سورة الغاشية تقدم نموذجًا للتوازن اللفظى ، اتساقًا مع التقابل المعنوى ، هى معنية برصد المتقابلات المعنوية فالوجوه الناصبة فى مقابل الوجوه الناعمة ، والنار الحامية فى مقابل الجنة العالية ، والعين الآنية فى مقابل العين الجارية . وقد انعكست هذه المتقابلات المعنوية على البنية اللفظية ، فجاءت فواصل السورة متوازنة ، مما يمنح هذه المتقابلات وحدة ، لا تقوم على المعنى وما يقابله فحسب ، بل أيضًا على اللفظ وما يماثله .

إن السورة من هذا المظور ، يمكن أن تنقسم إلى أربعة أقسام .

القسم الأول يمتد من الآية / ١ وحتى الآية / ١٢ ، أى الآيات التى تقابل بين الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وقد جاءت الفواصل فى معظمها على صيغة « فاعل » .

القسم الثانى يمتد من الآية ١٣ وحتى الآية ١٦ ، أى الآيات التى تصف الجنة العالية . وقد جاءت الفواصل فى هذه الآيات الأربع على صيغة مفعول .

القسم الثالث يمتد من الآية ١٧ وحتى الآية ٢٠ ، وهى الآيات التى تحث على التأمل فى الطبيعة وما حولها ، وقد جاءت كلها بصيغة المبنى للمجهول .

أما القسم الرابع والأخير ، فهو يشمل الآيتين « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » وقد جاءتا بصيغة اسم الفاعل من الفعل الرباعى .

إن هذه البنية اللفظية تقوم على التقابل بين الألفاظ ، انعكاسًا للتقابل بين المعانى ويتغير التوازن اللفظى مع تغير فكرة التقابل بين المعانى ، كما رأينا فى المحاور السابقة مما يعطى تنوعًا فى الإيقاع أو محسنًا للألفاظ كما يقول علماء البديع . يعبر عن التنوع فى الدلالة ، من كل زوج بهيج ، أو من كل زوج كريم . وهذه الزوجية هى المقابل لتلك الوسطية بمعناها القرآنى الذى لا يقف عند الشىء الواحد ، أو عند النقطة بين الشيئين ، بل هو دائمًا يتطلع إلى ما يتقابل مع هذا الشىء ويكلمه ، فالأنا يتكامل مع الآخر ، والذكر مع الأنثى ، والليل مع النهار ، والشمس مع القمر .

إن سياق الآيات التى وردت فيها فكرة « الزوجية » يؤكد هذا التعليل ، فهو سياق يتحدث عن الأشياء المتقابلة ، جنبًا إلى جنب مع فكرة الزوجية ليلفت النظر

إلى أن هذا التقابل يعنى فكرة الزوجية التكاملية ، وهى الفكرة التى تتبعها الوسطية فى السياق القرآنى .

نجد هذا فى سورة الرعد فى الآيات / ٢ ، ٣ ، ٤ .

وفى سورة النحل فى الآيات من ٦٥ إلى ٧٢ .

وفى سورة طه فى الآيات / ٥٣ .

وفى سورة الروم فى الآيات من ١٧ إلى ٢٧ .

وفى سورة فاطر فى الآيات / ١١ ، ١٢ ، ١٣ .

وفى سورة الشورى فى الآيتين / ١١ ، ١٢ .

وفى سورة الزخرف فى الآيات / ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

وفى سورة الذاريات فى الآيات / ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ .

وفى سورة النجم فى الآيات / ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ .

إن مثل هذه الآيات تتحدث عن الشىء وما يقابله وتربط ذلك بفكرة الزوجية لكل الظواهر الخارجية التى تحيط بالإنسان ، مما يدل على أن فكرة المقابلة فى القرآن الكريم ، لا تصدر عن مجرد الملاحظة العابرة ولكنها ترتد إلى جوهر يقف وراء هذه الظواهر ، وإلى فكرة الوسطية ، بمعنى الزوجية ، التى تلقى بظلالها على كل ملاحظة ، فتحيلها من مجرد شىء عابر إلى « بناء » عام متناسق . وتستخلص صدقه من التطبيقات حوله ، وبذلك تتحول النظرة إلى نظرية ، والملاحظة إلى منظومة .

القصة القرآنية
وحدود الوسطية

ترددت تفسيرات كثيرة للشخصيات التى وردت فى القصة القرآنية ، فمن المفسرين من يرجعها إلى أصول تاريخية ، ومنهم يجتهد فى تفسيرات أخرى ، خذ مثلاً : شخصية ذى القرنين ، فقد قيل هو الإسكندر الذى ملك الدنيا ، وقيل كان عبداً صالحًا ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكم ، وقيل نبيًا ، وقيل ملكًا من الملائكة ، وعن علىّ رضى الله عنه أنه ليس بملك ولا نبى ، ولكن كان عبدًا صالحًا ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه الله فسمى ذا القرنين ، وفيكم مثله أراد نفسه ، ومثل هذه الأقاويل وردت حول الخضر ، أو بلقيس ، أو أهل الكهف ، أو هاروت وماروت ، أو غير ذلك من شخصيات ترددت فى القصص القرآنى .

وقد بعثت هذه القضية من جديد بين المفكرين المعاصرين ، فمنهم من يعيد القصص القرآنى إلى جذور تاريخية ، ومنهم من لا يعيدها إلى جذور تاريخية . وقد اشتد الجدال حول هذه القضية حينما نشر طه حسين كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، وشكك فى بعض الشخصيات القرآنية ، وقد تبعه كثير من تلاميذه من أمثال الدكتور محمد أحمد خلف الله فى رسالته للدكتوراه تحت عنوان « الفن القصصى فى القرآن الكريم » . فقد رأى أن دور الفن فى تلك القصص أكثر من دور التاريخ ، وبلغ الانحراف عند طه حسين وبعض تلاميذه أن تسرب إليهم الشك فى النصوص القرآنية ، مما دفع كثير من المفكرين إلى أن يكتبوا الكتب والمقالات فى الردود على هذا الانحراف عند طه حسين وبعض تلاميذه .

وردت آيات كثيرة فى سور عديدة تفيد أن النبى ﷺ لم يكن يتلو قبل القرآن كتابًا آخر حتى يمكن أن ينقل منه ، أو تفيد أن بعض المشركين شكك من قبل طه حسين فى أن النبى ﷺ كان يأخذ قرآنه من رجل آخر ، ولكن القرآن يرد عليه بأن لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ، ووردت آيات أخرى تفيد

أن القصص القرآنى ليس مختلفًا ولا مسبوقًا وأن قوم محمد لم يكونوا يعرفونـه ، ولـم يكونوا حاضرين هذه الوقائع التى أخبرهم بها القـرآن الكريـم ، وكـل هـذا يعنـى أن القرآن الكريم يؤكد أن قصص القرآن شىء غير مسبوق ، ولكنه لا يعنـى انـه مخـالف للتاريخ أو أنه اختلاق لم يحدث . إن هذا التعارض الظاهرى الـذى يبـدو بيـن آيـات القرآن التى تؤكد أن القصص القرآنى غير مسبوق ولم يعرفه العرب من قبل ، وبين ورد فى الشعر الجاهلى وما تردد فى الجزيرة العربية وخاصة بتأثير أهل الكتاب من قصـص للأنبياء من أمثال موسى وعيسى وداود وسليمان - أقول إن هـذا التعـارض الظـاهرى يمكن حسمه بسهولة على أساس أن التاريخ قد قدم المادة الأصليـة ، وأن القـرآن قـد صاغ هذه المادة فـى أخـرى مختلفـة تمـام الاختـلاف ، وتخضـع للمفـهوم الإسـلامى وتحمل العقيدة الإسلامية ، مما جعلها تبدو جديدة وفى ثوب آخـر لـم يسـبق إليـه . وإذا جاز لنا أن نستخدم بعض المصطلحات المعاصرة من أمثال مصطلح « تناص » أو مصطلح « توظيف التاريخ » إذا جاز لنا أن نستخدم مثل هـذه المصطلحـات ولـو مـن باب ضرب الأمثال ، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَـا فَوْقَـهَا** ﴾ ، فإننا نقول : إن القرآن الكريم وظف التاريخ ، واستخدم التراث السابق كخلفية ينطلق منها لصياغة جديدة . وتكون القصص القرآنية فى نهاية الأمر مختلفة عن التـاريخ وإن كانت معتمدة عليه ولا تناقضه .

وكل هذه المقدمة لا لزوم لها وخير منها ألا تكون ، لأن القرآن الكريم نـهى عـن مثل هذا الجدال واللجاج الذى لا فائدة منه . فحين تساءل المشركون عن عـدد اهـل الكهف ، أو تساءلوا كم لبثوا ، هدى الله نبيه إلى المنهج القرآنـى الـذى يمتنـع عـن مثل هذا الجدال الذى لا فائدة منه ، فيقول له مرة : ﴿ **قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ** ﴾ ، ويقول له مرة أخرى : ﴿ **قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا** ﴾ ، ثم ينهاه عن الخوض فى مثل هـذه اللجـاج الذى لا يفيد شيئًا ويقول له : ﴿ **فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْـهُمْ أَحَدًا** ﴾ . والقرآن متسق مع نفسه فى مثل هذا المنهج ، فليس المقصود هو التفصيـلات أو إعادة التاريخ كما كان أو الحديث عن العدد أو الزمن أو عن أسماء الشخصيـات أو عن عصورهم ، لأن مثل هذه التفصيلات إنما هى من عمل المؤرخيـن ، أمـا القـرآن الكريم فإنه يهدف إلى شىء أبعد من ذلك ، إنه يصوغ التاريخ ليقـدم قصـة قرآنيـة لـها

هدف دينى وغاية نبيلة تقدم التسرية إلـى النبـى محمـد ﷺ وتقـدم العـبرة إلـى قومـه المسلمين .

تلك هى المقدمة الأولى .

* * *

أما المقدمة الثانية فتتلخص فـى أن القصـة القرآنيـة غـير القصـص الأوروبيـة ، والوحدة القرآنية غير الوحدة العضوية ، ولكلٍ سياقه الخاص ، الذى يخلق مصطلحاته الخاصة .

القصة الأوروبية فى شكلها التقليـدى تنطلـق مـن محاكـاة الحيـاة ، وتدفـع كـل عناصرها الفنية للإيهام بالواقع ، وتعمل على خلق واقع جديد بين صفحاتـها ، يعيـش فيه القارئ الشخصيات وكأنها من لحم ودم .

أما القصة القرآنية فإن هدفها أعلـى مـن ذلـك ، إنـها تحـاول تشكيـل الواقـع ، انطلاقًا من أهداف دينية ورؤى أخلاقية . إن الشخصية عندها هى وسيلة لتبليـغ رسـالة ، فلا يهم بأن تشاكل الواقع ولكن يهم بأن تبلغ الرسالة .

قال لى صاحبى وقد عاد لتوه من أوروبا ، يتيـه بمـا حشـا بـه دماغـه مـن أحـدث النظريات ، وبما أعوج به لسانه من آخر المصطلحات :

– كيف يصح فى قرآنكم أن يقول هابيل لأخيه قابيل : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِـإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ أليس هابيل هو داعية الخير ، فلم يشمت فى أخيه ، ويريد أن يوقعه فى الإثم ، وكأنه بذلك يرضى حاجة فى نفسه .

قلت له :

– أنت تخلط الأوراق عن غباء أو عن سوء نية ، وتطبق آراء منقولة مـن كتـب ، على سياق قصة لم ترد فى كتبكم . إن القصـة القرآنيـة تنطـق هـابيل بعظـة تبقـى علـى مختلف الأزمان ، إنه لا يشمت فى أخيه ولا يريد أن يوقعـه فـى الإثـم ، ولكنـه يحـذر الأجيال التالية ، ويبصر بالعواقب .

سكت صاحبى على مضض ، ولكن نظرة نارية من جانب عينه اليسرى كشفت عن سوء النية .

* * *

صورت القصة القرآنية بعض شخصياتها من منطلق الوسطية ، فجعلتها تدافع عن هذه الفكرة ، وتعد أصحابها بحسن العاقبة . وفى الوقت نفسه تحذر من عاقبة التطرف وتسميه مرة الطغيان ، وثانية البغى ، وثالثة الظلم ، ورابعة الإسراف ، وخامسة الضلال ، وغير ذلك من مفردات تجتمع كلها على معنى واحد ، وهو تجاوز الحد المألوف أو بعبارة أخرى تجاوز حدود الوسطية لتقع فى مشتبهاتها .

ويمكن أن نضرب مثالين على ذلك :

١- قارون فى آخر سورة القصص - مثال أول .

٢- أصحاب الجنة فى سورة نون - مثال ثانٍ .

* * *

اهتمت المأثورات الدينية بفكرة الشكر عند النعمة والصبر عند النقمة . وتوارد فى ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية وفى سائر أقوال الحكماء والمصلحين والعلماء ، مما يكشف عن اهتمامات خاصة بهذه الفكرة تعود إلى أسباب جذرية .

ويبدو أن احتمال النعمة اصعب بكثير من احتمال النقمة ، فقد يكون احتمال النقمة بحكم الضرورة التى لا محيص عنها ، أما احتمال النعمة فهو الذى يكشف عن معادن الرجال . وكم من فقير تراه صابرًا محتسبًا أجره عند الله ، حتى إذا ما يسر الله له الحال انقلب إلى الضد وكشف عن خبث المعدن . ومن هنا لم يحتمل هذا الابتلاء بالنعمة وكفر بها فتحولت النعمة إلى نقمة ﴿ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ومن هنا نجد أن القصتين اللتين أشرنا إليهما كنموذجين ، قد اهتمتا بنوع خاص بالشكر على النعمة فأصحاب الجنة كانوا أصحاب جنة ولكنهم غدو على حرد قادرين . وقارون آتاه الله الكثير من الكنوز ، فقال إنما أوتيته على علم عندى . ومن

هنا كانت العاقبة ما شرحه الله فى ثنايا القصة ، وما قدمه أمام الأجيال القادمة لكى يحذروا من الانحراف عن الوسطية والوقوع فى كفران النعمة .

* * *

قلت آنفًا إن الاهتمام القرآنى بفكرة الشكر على النعمة إنما يعود إلى أسباب جذرية . وهى أسباب تضرب بجذور عميقة إلى فكرة الوسطية ، فهى فى خلاصتها ضبط للمشاعر ، فلا يتطرف المرء فى فرحه حيث تأتيه النعمة ، ولا يتطرف أيضًا فى جزعه حين تصيبه النقمة ، لأن المطلوب هو الحد الوسطى الذى يوازن بين المشاعر ، ويعادل بين الحالات ويقبض على الصراط المستقيم ، الذى يستطيع بهداية الله أن يتشبث به داخل التيارات المتضاربة والانفعالات المتداخلة .

* * *

ويبتلى الله قارون بنعمتين . فقد كان من قوم موسى ينتمى إلى سلالة العلم والحكمة والنبوة من ناحية . وآتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة من الناحية الأخرى .

ولكنه يكفر بهاتين النعمتين ، ويخرج على الحد الوسطى ، ويبغى على قومه كما يقول القرآن الكريم ، ويصاب بالغرور والعلو والفساد وغير ذلك من صفات يذكرها القرآن الكريم ، وتجتمع كلها على أن قارون قد تجاوز الحد الوسطى .

وليس تعبيرنا بأنه قد تجاوز الحد الوسطى هو مجرد استنتاج ، ولكنه نص صريح ذكره القرآن الكريم على لسان قومه من أهل العلم والحكمة ، وهم يحاولون أن يعدلوا مواقفه ، فيرشدونه إلى الطريق الوسطى ، ويلخصونه فى أمرين :

١- لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين .

٢- وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين .

والأمران كما هو واضح يجتمعان على فكرة الوسطية ، فأهل العلم من قومه ينصحونه بأن يجمع بين الدين والدنيا ، ولا يجعل الدنيا تفتنه عن الدين ، فيغرق فيها إلى حد التطرف والخروج عن الاعتدال .

وهو أيضًا ينصحونه بعدم المبالغة فى مشاعره ، فلا يندفع مع الزهو والغرور والكبر وغير ذلك من صفات متطرفة عبر عنها القرآن الكريم بصيغة المبالغة فى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ .

ويقدم القرآن الكريم مستوى آخر يعين على إبراز الهدف الأساس للقصة . فينتقل من دائرة قارون وخاصته ، إلى دائرة الناس من حوله ، مما يوسع من تأثير القصة ، ويضيف إليها بعدًا أكبر ، ويبحث عن امتداداتها داخل بقية الناس . فقد خرج على قومه فى زينته وأبهته ، وتوالت التعليقات من فريقين .

إن أهل الظاهر ينخدعون بالمظاهر وينساقون مع السطح البراق للأشياء ، فيحسدون قارون على حظه العظيم من الدنيا ، ويتمنون لأنفسهم ما لقارون من كنوز وأموال .

أما أهل العلم ممن لا ينخدعون بالمظاهر البراقة ، وينفذون إلى عمق الأشياء ، فينصحون أهل الظاهر بالتريث والصبر وانتظار العاقبة .

إن هذا التعليق ، سواء كان من أهل الظاهر أو من أهل العلم ، يتناسب مع سياق القصة القرآنية ، كجنس أدبى مستقل يخلق مصطلحاته الخاصة ، فهو تعليق فى نهاية القصة يتحول إلى استنتاج وإلى تلخيص للهدف ، على هيئة حوار يؤدى فى صيغة بلاغية قوية .

ولا نريد أن نقع ، كما وقع الكثيرون ، فنخلط بين الأوراق ، ونحاكم القصة القرآنية بمقتضيات شكل قصصى آخر ، له سياقه الخاص ومصطلحاته الخاصة ، فنقول : إن القصة القرآنية تميل هنا إلى المباشرة والعظة والخروج على محاكاة الواقع ، وغير ذلك من مصطلحات يقتضيها مفهوم الشكل التقليدى للقصة الأوروبية ، كما حفظها النقاد الأوروبيون ورددها من بعدهم نقادنا العرب .

ولا نريد أن نقول أيضًا بنبرة تفاخر : إن القصة القرآنية قد سبقت أحدث الصيحات فى مجال الفن القصصى ، وهو مجال القصة التسجيلية المعاصرة ، التى تميل إلى التعليق ، وانتزاع الهدف ، خلال وثائق حية ، أو خلال « كورس » أى مجموعة ترسل أقاويلها تعليقًا على أحداث القصة . إن مثل هذا القول الذى يميل

إلى التفاخر ، إنما يعنى فى تحليله الأخير أن القصة القرآنية تلتمس شرعيتها من سياق أجناس أدبية معاصرة .

إن القصة القرآنية هى القصة القرآنية ، لها سياقها الخاص وبنيتها الخاصة ، دون أن تنتظر مشجبًا تستند إليه . إن الطريقة الموضوعية لأن نبحث عن مصطلحات هذه القصة من داخلها . فليس من الموضوعية فى شىء أن نبحث فى شكل قصصى له سياقه الخاص وبنيته الخاصة ، عن مصطلحات أو إنجازات تنتمى إلى الأشكال القصصية الحديثة .

* * *

تذكر سورة « نون » أن الله قد ابتلى أصحاب الجنة بنعمتين أيضًا . فقد كانوا أولاً فى نعمة المال ، فهم أصحاب زرع ونخيل وأعناب . وكانوا ثانيًا فى نعمة الإيمان . وكان أبوهم - كما يذكر المفسرون - رجلاً صالحًا ، يؤدى حقوق ماله ، ويعطى الفقراء والمساكين .

ولكن أصحاب الجنة لم يكونوا عند مستوى الابتلاء والاختبار ، وكفروا بأنعم الله ، وقرروا أن يمنعوا حق المال ، ونسوا الله ، وغدوا على حرد قادرين .

وتصور القصة موقفهم فى صورة منفرة بغيضة ، فقد تآمروا فى سواد الليل ، وخرجوا فى الصباح يتحانثون ، ويوسوس بعضهم إلى بعض كالشياطين ، وتمتلئ نفوسهم بمشاعر المنع والكفر ، التى تمنع نور الصباح من حولهم أن يتسلل إلى قلوبهم ، فيغمرها بالإيمان والضياء .

ويشير القرآن إلى أن هذا الموقف منهم هو خروج عن الوسطية والقصد ، وتصفه بأنه ظلم وطغيان ، كما اعترف بعضهم لبعض وهم يتلاومون .

وحينما أقول « إن موقفهم هو خروج عن الوسطية » ، لا أحمل القصة أكثر مما تحتمل ، ولا أضفى عليها صفات من اختراعاتى ، لأن الذى يصفهم ويقف ضد أهوائهم هو أوسطهم . إن القصة لا تذكر اسم هذا الأوسط ، ولكنها تذكر صفته ، لأنها هى المطلوبة فى هذا السياق ، ولأنها هى التى تمثل الهدف الرئيس فى القصة .

والوسط هو العدل والخير كما ذكر المفسرون ، أو هو العدل الذى يؤدى إلى الخير ، كما شرحت فى الكتاب الأول من مشروع الوسطية العربية ، وعند الحديث عن آية الوسطية فى سورة البقرة .

والتحليل اللغوى والسياق الدينى لمفردة « العدل » يكاد يجعلها مرادفة لمفردة الوسطية بمعناها الذى صاغته الحضارة العربية الإسلامية كما سبق أن شرحت أيضًا بالتفصيل فى الجزء الأول عند الحديث عن المذهب .

إن كلمة « عدل » تعنى الموازنة بين الأمرين بما يحفظ استقلاليتهما ، فالأمران هنا ، كما يمثل الطبرى ، يشبهان عدلى البعير المتوازنين ، فالوسطية إذًا هى الموازنة والإقامة والعدل بين الشيئين ، بما يحفظ استقلاليتهما ، ولا يجعل طرفًا يبغى على حساب الطرف الآخر .

وقلنا أن العدل بمعناه الوسطى يؤدى إلى الخير ، وهذا يجعل للوسطية العربية هدفًا أخلاقيًا ، لأنها ليست مهارة عقلية ولا تحليلاً رياضيًا ولكنها موقف أخلاقى يرتبط بالحياة ، ويتعامل مع المتقابلات والنظائر ، ويخلق من خلال ذلك صيغة جديدة ، تصبح هى النموذج الذى يحتكم إليه الفرقاء ، أو الشاهد الذى يجد عنده الحق والعدل كل من المتخاصمين .

فالوسطية الإسلامية إذًا نشأت داخل تراث دينى وداخل التزام خلقى ، وهذا هو ما أشارت إليه قصة أصحاب الجنة ، وقد جعلت خروجهم عن الوسطية خروجًا عن مشيئة الله ، فهم لا يستثنون ، ولا يتوكلون على الله ، ولا يفوضون الأمر إليه . وهذا هو ما وصفهم به أوسطهم حين قال لهم : ﴿ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴾ ، واعترفوا بنصيحة أولهم وقالوا فى الجواب عليه : ﴿ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ .

فالخروج عن الوسطية هو خروج عن الجوهر ، لأنه خروج عن أركان المذهب الذى ينتمى فى تكوينه إلى مصدر إلهى . ومن هنا شددت القصة عليهم العقوبة ، لأنهم متمردون ، منحرفون عن الأسس ، ظالمون ، ضالون ، طاغون ، يستحقون عذاب الدنيا وعذاب الآخر : ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

الترتيب القرآنى
بين الفصل والوصل

ترتيب القرآن ترتيب توفيقى ، بمعنى أنه صادر من السماء ، وغير خاضع لاجتهادات بشرية ، أو واقع تحت سيطرة نظريات نقدية أو مذاهب أدبية . ومن ثم غير مناسب تمامًا أن يطبق على القرآن الكريم القواعد المستحدثة ، أو المصطلحات التى تخضع لاجتهادات بشرية ، وتتأثر بمنجزات تاريخية . فيقال مثلاً إن القصة القرآنية تخلو من وحدة الشعور ، وأن الأحداث لا تترتب فيها ترتيبًا منطقيًا ، إذ يقفز فيها القارئ من شعور إلى شعور ومن حدث إلى حدث ، دون مراعاة لسبب عقلى أو ترتيب تاريخى .

إن القصة القرآنية هى القصة القرآنية ، بمعنى أنها جنس مستقل ، يخلق مصطلحاته الخاصة بها ويعامله الباحث خلال سياقه الخاص ، ومنطقه الخاص الذى يتجاوز الاعتبارات البشرية والاجتهادات التاريخية .

وهناك ميل واضح فى القرآن إلى كسر الصرامة التاريخية ، والسور والآيات فيه لم تترتب ترتيبًا تاريخيًا بحسب الأيام والشهور والسنين فيأتى السابق أولاً ، ويتبعه اللاحق ثانيًا ، وهكذا فى دورة زمنية ، خضوعًا للمقاييس البشرية التى تراعى دورة الشمس فى حركتها منذ الشروق وحتى الغروب ، مكونة بذلك الثوانى والدقائق والساعات والأيام والشهور والأعوام ، أو باختصار مكونة الدهر بمقياس الهندسة البشرية المحدودة ، والمستمد من حركة الشمس الظاهرة ، والمرتبطة بمجرتها الخاصة .

إن القرآن الكريم ينتمى إلى عالم الوحى السماوى ، الذى يتجاوز المنطق البشرى ، ويتعالى فوق التقسيمات الزمنية المحدودة إلى ماض وحاضر ومستقبل ، وإلى ثوان ودقائق وساعات . إن الزمن مبسوط تمامًا أمام الحضرة الإلهية ، وإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون ، وإن الدهر كله بمعناه البشرى هو لحظة واحدة بالمقياس الإلهى .

ومن هنا خطأ الذين يبالغون ويربطون القرآن بسياقه التاريخى ، ويخضعونه للضرورة التاريخية ، وينظرون إليه كنص بشرى موقوت ، ومجرد من أزليته وديمومته وصلاحيته لكل زمان ومكان . إن أمثال هؤلاء يخلطون بين الأشياء ، ويضعون الجميع فى سلة واحدة ، يلعبون بالبيضة مع الحجر دون مراعاة للفروق ، وقد ينجحون فى إحدى المرات من باب الصدفة ، أو مهارة الحواة والمخادعين ، ولكنه فى النهاية نجاح رخيص وموقوت ومخالف لطبيعة الأشياء .

وإذا كان فى عالم البشر ، ومن باب المثال ولله المثل الأعلى ، لا نخلط بين هندسة إقليدس وهندسة أينشتين ، ونرى أن لكل هندسة مجالها ومقاييسها ، فهندسة إقليدس ترتبط بحركة الشمس الخارجية ، وبالمفهوم التقليدى للخط المستقيم . ويسطح الأرض المنبسط أمام العين البشرية ، بينما تتسع مقاييس هندسة أينشتين ، وتخرق عالم الأرض والمجرة والشمس ، وتقدم نظرياتها النسبية المرتبطة بالكواكب الأخرى والمجرات الأخرى ، وتقدم مفاهيم أخرى للزمن وللخط الهندسى .

إن هذا المثال من عالم البشر يخلصنا من الوقوع تحت فكرة الخلط بين المقاييس المختلفة ، وتحت فكرة التشبث بالنظريات العقلية المستمدة مما تراه عقولنا وحواسنا ، وتحت الاستنامة لمثل هذه النظريات ، بحكم العادة والتقليد والمسايرة ، أو بحكم الغرور البشرى الذى يحصر تصوراته داخل نطاقه المحدود ، ويحارب ما عدا ذلك ، ولا يترك الباب مواربًا أمام الاحتمال والإمكانية والتوقع .

إن القرآن الكريم يفتح المنافذ أمام التوقعات التى لا تخطر على العقل البشرى من الوهلة الأولى . إن القصص القرآنى زاخر بما هو فوق الإدراك البشرى ، وفوق منطق السببية العقلية . العبد الصالح فى سورة الكهف يعلم موسى الكثير من علمه اللدنى الذى يتجاوز التفسيرات الخارجية ، وقصة موسى فى سورة القصص تخضع لمنطق يتجاوز المنطق البشرى الموقوت ، والتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًا وحزنًا ، وغير ذلك مما يكسر القواعد البشرية ، ويوجه الأنظار إلى قوة أخرى ، ويفتح العقول أمام الفيوضات الجديدة ، ويخفف من الصرامة التاريخية ، ومن المقاييس البشرية المحدودة ، التى نتعامل معها كما نتعامل مع المنجزات البشرية فى حياتنا اليومية ،

دون أن نجعلها تستبد وتصاب بالغرور ، وتتطاول إلى مقام غير مقامها ، فلكــل مقامـه المعلوم ، ولكل مقياسه الخاص ومنطقه الخاص .

* * *

ترتيب القرآن الكريم كما قلت هو ترتيب توقيفـى ، يتجـاوز الحـدود التاريخيـة المتعارفة ، وقد تأتى سورة مكية بين سورتين مدنيتين ، وقـد تحتـوى السـورة الواحـدة على آيات مكية وآيات مدنية ، وقد ورد فى كتب التفسير أن القرآن الكريم نزل جملـة واحدة من اللـوح المحفـوظ إلـى السـماء الدنيـا ، ثـم نـزل منجمًا ومفرقًا بحسـب الأحداث التاريخية .

إن فكرة إنـزال القـرآن الكريـم جملـة واحـدة إلـى السـماء الدنيـا تشـير إلـى الاعتبارات الإلهية ، التى يختفى أمامها الزمن التاريخى ويتساوى لديها المـاضى مـع المستقبل ، وتصبح التجربة كلها واحدة تتساوى أمامها الأمكنة والأزمنـة . أمـا فكـرة نزوله منجمًا ومفرقًا فهو مراعاة للمقاييس البشرية التـى تخضـع للضـرورة التاريخيـة ، وتستمد منطقها من العقل البشرى المحدود الذى ينتقل من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل . والفكرتان معًا تحلان معضلة العلاقة بين العام والخاص ، بين القوة العليا والقوة الدنيا ، بين ما هو أزلى وما هو موقوت ، بين ما هو دائم وما هو عارض .

* * *

فى الجزء الأول من كتاب الوسطية العربية ، وهو الجزء الذى يختص بالمذهب ، حددت خاصية هذه الوسطية فى عبارة تجاور الأشياء مع تمايزها . وضربت مثلاً لذلك بالبحرين اللذين يلتقيان ولكنـهما لا يبغيـان ، إذ يظـل لكـل بحـر - أو لكـل طـرف - استقلاليته دون أن يفنى فى الآخر ، ودون أن تضيع خاصيته . ورأيت أن هــذه العبـارة هى المدخل الذى يميز بين وسطية أرسطو التى تقوم على الاستقلالية مع وجود نوع من الرابطة بين الطرفين ، وهى رابطة تبلغ من الدقة ما يشبه الصراط المستقيم ، الـذى هـو أرق من الشعرة وأحد من السيف ، ويحتاج إلى نور وهداية ، يقذفـهما اللـه فـى قلـب العبد حتى تتضح له الأمور ، ولا تختلط المتشابهات ، ولا تضيع الحدود ، ولا يصبـح الجميع فى سلة واحدة .

أما فى الجزء الثانى من كتاب الوسطية العربية ، وهو الجزء الذى يتابع تطبيقات هذا المذهب ، وبنوع خاص فى فصل « الأدب » - فقد رأيت أن فكرة الوحدة التركيبية هى المعادل الأدبى لفكرة تجاوز الأشياء مع تمايزها . إن الاختلاف بين الوحدة العضوية والوحدة التركيبية هو شبيه بالاختلاف بين وسطية أرسطو والوسطية العربية ، وإنه خلط للأشياء أن نتشبث بمصطلحات الوحدة العضوية ونحن نحلل الأجناس الأدبية العربية التى تخضع لملابسات تاريخية ولسياق ثقافى .

عجيب حين نتحدث عن القرآن الكريم وعن النصوص ، أن نرفع شعار الضرورة التاريخية والسياق الاجتماعى ، وأعجب من ذلك حين نتحدث عن النصوص الأدبية التى يبدعها البشر لا تهتم بالسياق الاجتماعى والتاريخى ، ونلجأ لمقاييس ننتزعها من حضارات أخرى ونخلع عليها صفة المطلق الذى يصلح لكل زمان ومكان .

قلت آنفًا إن فكرة الوحدة التركيبية هى المعادل الأدبى لفكرة تجاور الأشياء مع تمايزها ، لأن هذه الوحدة تقوم على كيانات مستقلة وعلى فصول مستقلة . ولكن هناك رابطة من نوع ما تربط بين هذه الكيانات وهذه الفصول ، فمثلاً وحدة البيت فى القصيدة التقليدية ، وتقسم القصيدة إلى أغراض مستقلة ، لا تتنافى مع روابط تجمع بين هذه الأبيات وبين هذه الأغراض . وقد نتبين هذه الرابطة فى مصطلحات بلاغية مثل : حسن التخلص والاستطراد والاسترسال ، وغير ذلك من مصطلحات وضعها النقاد للقدامى ، لتقعيد لفكرة العلاقة والرابطة بين هذه الكيانات المستقلة .

وفى الجزء الثانى نفسه تتبعت هذه الوحدة التركيبية فى الترتيب القرآنى ، وحددت معانى كلمات مثل القرآن والسورة والفاصلة ، ووجدت أنها مستمدة من طبيعة هذه الوحدة التى تربط بين هذه الكيانات المستقلة ، التى تتجاور كالآلئ فى العقد الفريد التى تفصل بينها فاصلة ، وهو الاسم الذى أطلقه النقاد على الفاصلة القرآنية تشبيهًا لها بالخرزة التى تفصل بين خرزتين .

ويمكن أن نراجع ما ذكرناه فى هذا الجزء تحت عنوان : « القرآن الكريم » (صفحة ١٢١) . ونركز فى هذا الفصل على عنصر المناسبة الذى يمثل الرابطة التى تربط بين الكيانات المستقلة فيما نسميه بالوحدة التركيبية .

القرآن الكريم
وتطبيقات الوسطية

إن اختبار صدق النظريات أو المذاهب . إنما يكون دائمًا بانتقالها من العموميات النظرية ، إلى التطبيقات الجزئية . إنها بهذا تثبت ديمومتها خلال تلك الجزئيات ، التى تتحول فى الوقت نفسه إلى براهين دالة على صدق العموميات والنظريات . إنها علاقة مركبة بين العموميات والجزئيات . وبين النظريات والتطبيقات ، فالمذهب الصادق يستمد وجوده خلال أجزائه ، التى تتحول إلى براهين وأدلة على حيويته .

وفى الوقت نفسه فإن هذه الجزئيات المتناثرة والتطبيقات المتنوعة ، إنما تستمد رصيدها من حيوية النظريات والمبادئ الكلية ، إنها بهذا تستند إلى مهاد نظرى ، وإلى خلفية ثقافية وتاريخية ، تحدد هدفها ، وتوحد مجراها ، ولا تجعلها تتسيب بين النظريات المختلفة والمذاهب المتنوعة ، فتفقد بذلك معناها ومبررها .

وقد تشكل للمسلمين عقب الهجرة إلى المدينة مباشرة مجتمع خاص ، له كل مقومات الدولة المدنية والدينية ، وله دستوره المتمثل فى القرآن الكريم ، الذى حدد الحقوق والواجبات ، والعلاقات داخل الأسرة الواحدة ، وداخل المجتمع الكبير ، وبين الحاكم والمحكوم ، والكبير والصغير ، والأمير والغفير . بل والعلاقات أيضًا مع الفئات المختلفة التى لا تدين بالدين الإسلامى ، ومع الحكومات والدول الأخرى ، التى تقيم على الحدود أو خارج الحدود .

وقد حرصت أول سورة نزلت بالمدينة أن تقدم المهاد النظرى ، وأن تعلن للناس كافة أن أمة الإسلام هى الأمة الوسط .

وقد صحب هذا الإعلان عن الأمة الوسط ، تغير القبلة من بيت المقدس ، خارج الجزيرة العربية وموطن النفوذ اليهودى والنصرانى ، إلى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، وعلى الأرض التى درج عليها جد العرب إسماعيل عليه السلام ، الذى جعل يحمل شعلة والده إبراهيم عليه السلام ، ليغرسها فى أصلاب العرب ، ويجعلها تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى تصل بذلك إلى محمد ﷺ ، وبذلك تحققت الخصوصية ،

ولكنها خصوصية لا تتخاصم فى الوقت نفسه مع العالمية ، ولا تفترض عداء مسبقًا بين ما هو خاص وما هو عام ، إنها تصدر عن صدر رحب ، يتعامل مع الأخوة ، أ، مع أبناء العم ، أو الإنسان فى كل مكان وزمان ، دون حساسية ولا عقد . ومن هنا جاءت الوسطية لتتحاور مع اليهودية والنصرانية ، وهما التياران السائدان فى تلك الفترة ، إنها لا تتنكر لهما ، بل تعترف بهما ، وترى أن الجميع ينتمون إلى نبع واحد ، وينتسبون فى نهاية الأمر إلى إبراهيم عليه السلام ، أبى الأنبياء ممن حملت ذريته اسمه ، وشكلوا الأديان تحت أسماء مختلفة ، قد تسمى مرة اليهودية ، وثانية النصرانية ، وأخيرًا الإسلامية ، ولكن الجميع مهما تعددت الأسماء يشتركون فى جوهر واحد يعمل على خدمة الإنسانية فى كل مكان وزمان .

إن الوسطية إذن تصدر عن حب وتسامح ، وتنطلق من الخصوصية لتتحاور مع العالمية ، وتركز على نقاط الالتقاء ، وتتجاهل نقاط الافتراق .

وقد ذكرت آية الوسطية فى سياقها بأن الرسول يكون شاهدًا على المسلمين ونموذجًا يقتدون به ، وأن المسلمين أيضًا يكونون أيضًا شهداء على الناس ، ونماذج للحب والتفتح والتسامح .

ولم يقف الأمر عند حدود هذه الآية الكريمة ، ولا عند هذا المهاد النظرى ، بل انبثت الوسطية فى سور وآيات مختلفة ، تمثل تطبيقات متنوعة على شتى المظاهر الدينية والمدنية ، وقد رصدت بعض هذه الآيات على النحو الآتى :

﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ البقرة/٢٤٧

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الأنعام/١٤١

﴿ يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الأعراف/٣١

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ النحل/٣٠

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ

الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ النحل/٤١

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ النحل/٩٧

﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ النحل/١٢٢

﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(٢٦)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ الإسراء/٢٦-٢٧

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴾ الإسراء/٢٩

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمْ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء/٥٧

﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ الإسراء/١١٠

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ الفرقان/٦٧

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ(٢٧)لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ الحج/٢٧-٢٨

﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد/٢٥

﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الجمعة/١٠

﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(٣٨)وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾ الحاقة/٣٨-٣٩

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ المعارج/١٩-٢٠-٢١

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ(٢٣)وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم/٢٣-٢٤

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ الروم/٣٦

﴿ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان/١٨

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ لقمان/٣٢

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ السجدة/١٦ .

إن مثل هذه الآيات إنما ترشد إلى الموقف الوسطى فى كل شىء بدءًا من التفصيلات السلوكية فى الحياة العملية ، وانتهاء بالعقيدة والمبادئ ، ومرورًا بالسلوكيات والمشاعر ، والعلاقات داخل الأسرة الواحدة ، وداخل المجتمع الكبير ، ومع كل البشر فى كل زمان ومكان .

والوسطية فى هذه المواقف السابقة ليست وسطية عقلية استنتاجية ، تبحث عن نقطة رياضية متساوية بين الطرفين ، ولكنها وسطية قرآنية تجمع بين الأمرين وتوازن بينهما ، إنها لا تلغى شيئًا على حساب شىء آخر ، إنها تراعى الجميع داخل معترك الحياة ، وبعيدًا عن الجدليات العقلية ، ثم توازن بين الأطراف فى حكمة عملية ، تعطى كل شىء على قدره . إنها تجمع بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى ، وبين الدنيا والدين ، وبين العلم والجسم ، والمادة والروح ، والمنفعة والعبادة ، والأنا والآخر ، والعمل والإيمان ، والسلوك والعقيدة ، والرحمة والعذاب ، والخوف والرجاء ، والشكر والصبر ، والتقوى والاستمتاع ، والليل والنهار ، والصلاة والسعى من أجل الرزق ، وما نبصره وما لا نبصره ، وما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وغير ذلك من أطراف تتقابل أو تتضاد ، ولكنها جميعًا تخضع لفكرة الوسطية ، التى تضع عينها على الأمرين معًا ، حتى لو كانا متضادين دون أن يفلت من يدها طرف ، فتقع فى النظرة الآحادية ، التى ترتد إلى التطرف وتتجاهل الآخر .

سورة النصر
وتمام الأمر

كانت سورة النصر هى آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وقد نزلت فى منى فى حجة الوداع كما قيل .

وسميت هذه السورة أيضًا سورة التوديع ، فقد أحس الصحابة أنها تنعى لهم رسول الله ﷺ ، صرح بذلك ابن عباس ، وحين سمعها عمر بكى وقال : كل كمال إلى زوال ، ولم يلبث الرسول ﷺ بعدها عامين إلا واختاره الله لجواره .

وليست هنا البتة مفارقة بين النصر والتوديع ، بين مشاعر الفرح والاستبشار ومشاعر الحزن والأسى . إن المفارقة تبدو فى رؤوس هؤلاء الذين يقفون عند الظاهر ، ويتعاملون مع الآن نفسه . أما هؤلاء الذين يتخطون الحجب وينظرون إلى المستقبل ، فإن العلاقة بين الأمرين واضحة ، تصل بها الوقائع والأحداث إلى علاقة قوية تعلو المفارقة وتتخطاها . فإن أصحاب الرسالات كما تدل الشواهد لا ينتهون إذ يموتون ، ولكنهم يحيون إذ يموتون . إن صاحب الرسالة يموت بجسده ، ولكنه يحيا بروحه . ينتهى أجله ويبقى تأثيره ، بل إن موته هو إيذان بانتشار رسالته ، وإن استشهاده هو إشعال لمبادئه ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ .

وهنا الفرق كل الفرق بين صاحب الرسالة وصاحب التاج ، صاحب الرسالة يمتد بعد انتهاء أجله ، أما صاحب التاج فإنه ينتهى مع انتهاء أجله .

إن صاحب النظرة القاصرة قد ينخدع بهيمنة صاحب التاج ، وقد تحدثه نفسه فيقول : ﴿ **يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** ﴾ . أما الذين أوتوا العلم ممن يستبطنون الأمور . فيدركون أن الخلود لأصحاب الرسالة ، ممن وهبوا أنفسهم للعقيدة ، وضحوا من أجل المبدأ .

حاول قيصر أن يصلب المسيح ظنًا منه أنه يقضى عليه . ولكن المسيح بعث من جديد ، ورفعه الله إليه وظل رمزًا للتضحية والاستمساك بالمبدأ ، وسيظل ما بقى

الدهر يمنح الناس الثقة وحب العطاء . بقى المسيح وذهب قيصر ، وتحول إلـى لقـب يرمز للطغيان ، مثل بقيـة الألقـاب التـى عرفـها التـاريخ ، فرعـون وتبـع والدكتـاتور والطاغية وغير ذلك من ألقاب تعبر عن كارثة من كوارث التاريخ .

إن مثل هذه الألقاب قد انتهى أصحابها وبقيت تلاك على الأسنة للعظة والاعتبار ، يتحدث عنها الناس كمـا يتحدثـون عـن الـبراكين والـزلازل والطوفـان والأعـاصير والنيران ، وغير ذلك من كوارث طبيعية ، لابد منها حتى تستقر الأرض وتثبت قشرتها .

إن الكوارث التاريخية أو الكوارث الطبيعية لابد منها ، لكى يبقى الصالح وتثبت الأرض بمن عليها ، فالشر لازم لوجود الخير ، والصراع بينهما من سنة الحيـاة ، وهـو صراع لا ينتهى بل هو ضرورى لكى يكتسب الجسم مناعته ويكتسب التاريخ مصداقيته .

* * *

ركزت فاتحة الكتاب على الهداية إلى الصراط المستقيم ، وفسر المفسرون ذلـك الصراط بأنه الطريق الوسط بين طرفين متطرفين ، طـرف المغضـوب عليـهم مـن ناحيـة وطرف الضالين من الناحية الأخرى .

وجاءت أول سورة نزلت بالمدينة لتؤكد هذا الطريق ، وتعلن أن أمة الإسلام هـى الأمة الوسط ، وجـاء ذلـك فـى البحـث عـن الخصوصيـة ، وعـن قبلـة جديـدة تمـيز المسلمين بين الأمم الأخرى .

وتكفل القرآن الكريم بتوضيح تلك الوسطية خلال محورين :

- الكشف عن أبعادها ومحاورها وتطبيقاتها بل وعن الانحرافـات عنـها والتنبيـه إلى الطرق الجانبية التى تتشابه معها فى الظاهر وتبتعد عنها فى الجوهر .

- لم يكتف القرآن الكريم بهذا الجانب النظرى فى صورته الفكرية والتطبيقيـة ، بل الأهم من ذلك والأبقى أن استطاع أن يحول الصحابة إلى نموذج أو شهداء حسب التعبير القرآنى ، وهذا النموذج يسعى فى الأرض ويحقق الامتداد ،ويؤكد الهدف من آية الوسطية ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

إذا اهتم الأمر ، وبلغ الرسول الأمانة وأدى الرسالة ، ولم يبق إلا أن يطمئن جسده فيحلق راضيًا بالرفيق الأعلى ، وجاءت سورة النصر أو التوديع لتؤكد كل هذه المعانى .

أحس الصحابة بمشاعر متداخلة بعد هذه السورة ، فيختلط الاستبشار فيها بالنصر والحزن من أجل فراق المرشد بل والإحساس بالمسئولية التى ألقيت على عاتقهم بأن يواصلوا المسيرة ويؤدوا الأمانة .

ولكن صاحب الرسالة لا ينتهى بموته - كما قلت ، فقد ترك لهم الرسول ﷺ النموذج ، وحولهم إلى شهداء على هذا النموذج ، وانطلق المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ينقلون هذا النموذج إلى كل مكان .

وأثبتت الوسطية نجاحها ، لأنها لم تقم على تعصب ولا انغلاق ، ولا هى مرتبطة بشخص أو إنسان ، إنها دين يقدم المذهب والتطبيق ، وهو دين صالح يراعى الفطرة ويعبر عن التاريخ فى حالة حركته وتطوره .

* * *

خاتمة الكتاب

كانت فاتحة الكتاب عن الوسطية القديمة ، وهى تنمو وتزدهر .

وتجىء خاتمة الكتاب عن الوسطية المعاصرة وهى تحتضر وترتد .

وبين الفاتحة والخاتمة عبرة تاريخ تتفهمها الأجيال فى كل زمان ومكان .

كانت الوسطية قوية ، تعبر عن نفسها خلال حضارة متكاملة ، تفرض نفسها على الحضارات الإنسانية الأخرى وتوجهها .

وجاء القرآن الكريم تجسيدًا لهذه الوسطية ، ينص عليها صراحة ، ويتابع تطبيقاتها فى شتى الظواهر ، وتجىء جمله وبنيته وقصصه وإشارته تعبيرًا عن هذه الوسطية ، ويحييها فى نفوس الصحابة حتى يحيلها إلى واقع ملموس .

ثم حدثت الكبوة ، وتوارت الوسطية فى العصر الحديث ، وأصبحت حديثًا مطويًا فى السطور ، أو مختبئًا فى الصدور .

ويتغلب منطق التاريخ الذى لا يعرف منطقًا سواه ، وتفسح الوسطية مكانها لمذاهب واردة مع حضارة غالبة ، ويتشدق المثقفون ببهر شديد عن الكلاسيكية والرومانتيكية والعبثية والبنائية ، وعن الحداثة وما بعد الحداثة ، وعن العولمة والنظام الجديد .

وتصبح الوسطية غريبة فى وطنها ، ويصبح الحديث عنها نوعًا من الارتداد إلى الماضى ، يلتمس له المحللون عناوين فى علم الأمراض النفسية .

وهنا العبرة الأولى ، وهى أن الحضارة إنما تكون حضارة برموزها ومذاهبها وقوالبها ، وإذا اختفى كل ذلك فهو إيذان باختفاء الحضارة نفسها .

ولكن نتلقف العبرة عند هذا الجانب المأسوى وننفض أيدينا عن كل شىء ، ونساير الموجة ، ونعوم مع الذين يعومون .

كلا ، فالعبرة الثانية التى يقدمها لنا التاريخ تكمن فى أن الحضارة العربية الإسلامية تملك فى داخلها عوامل استمراريتها ، وجينات تجددها ، إنها حضارة

عريقة لها قوانين ثابتة ، وهى قوانين لا تتـأرجح مـع آليـات الـسوق ولا مـع المصـالح العرقية الضيقة . إنها ثوابت تضـرب إلـى الفطـرة الإنسـانية ، وتبقـى مـا بقيـت القيـم الخلقية .

ومن ثم فإنها إذ تتوارى فإنما لكى تلتقط الأنفاس ، وتعود مـن جديـد ، وتفـرض رؤاها ومذاهبها وقوالبها على المسيرة الإنسانية .

ويبقى القرآن ينفخ الروح فى الجسد الساكن ، حتى تنبعث فيـه الحيـاة ، وتطـل الوسطية من جديد . ويكون لحضارتنا رموزها ومذاهبها التى تلتمسها من واقعها ، ولا تلتمسها من واقع آخر تحت عناوين براقة .

فإذا استطاع هذا الكتاب أن يسهم فى البعث الجديـد ، فـهذا يكفيـه . وإذا لـم يستطع فقد بلغ الأمانة ، وهذا يرضيه .

دعاء ختم الكتاب

ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة .

وربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين .

واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة .

وقل ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانًا نصيرًا .

قال ربى اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب .

ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها على وعلى والدى وأن أعمل صالحًا ترداه وأصلح لى فى ذريتى .

والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إمامًا .

ربى هب لى حكمًا وألحقنى بالصالحين .

* * *

إن هذه الدعوات السابقات مسطورة فى القرآن الكريم خلال سوره المتناثرة على مدى المصحف الشريف ، وهى تعكس الواقع الوسطى الذى لا يركز على جانب واحد دون الجانب الآخر ، فهى تلتمس من الله الحسنة فى الدنيا وفى الآخرة ، وغفران الذنوب وعدم الإسراف فى الأمر ، والمدخل الصدق والمخرج الصدق ، وغفران الذنوب والملك الكبير ، والعمل الصالح لوالديه ولذريته ، والذرية التى تقر بها الأعين وإمامة المتقين والحكم والصلاح ، وغير ذلك من أمور تغطى شئون الدنيا وشئون الآخرة ، وتنظر للإنسان ولمن حوله .

إن الدعاء هو أمل واستشراق للمستقبل ، والعبد الذى يلح بالدعاء يطلب من الله أن يحول أمله إلى واقع ، وأن يهبه القوة الروحية والمدد المعنوى لكى يحول هذا الأمل إلى واقع يتعايش معه ، فالدعاء التماس من الله وقرب منه وهو فى الوقت

نفسه ابتعاث للقوة الروحية والمعنوية عند الإنسان لكي يحول الواقع إلى أمل ، ولكي يرنو إلى المستقبل على هدى من دعاء شامل يجمع بين الدنيا والدين وبين الآنا والآخر وبين الإنسان ووالديه وذريته وأزواجه ، بحيث يصبح المجتمع يسير على أمل واحد واستشراق بالمستقبل يحدوه إيمان بالله وثقة بقدرات العبد على أن يصل إلى ما يريد على هدى من الله واستعانة به ، فالدعاء إذا يجمع بين هداية الله وبين عمل العبد لكي يحول هذا الدعاء إلى واقع يعكس رؤية شاملة ومتكاملة . ونحن حين نكرر هذه الدعوات ونلح فى إجابتها فى كل المناسبات ، إنما نأمل أن تتحول إلى واقع وإلى مستقبل يعكس منظورًا يجمع بين الأطراف المتكاملة ولا يركز على طرف دون الآخر .

إنه سميع قريب يجيب دعوة من دعاه .

التعريف بالكتاب

تتبع هذا الكتاب الوسطية فى القرآن الكريم ، وحدد معنى الوسطية القرآنية ، وبين انعكاس هذا المعنى على المفردة والجملة وأحيانًا بنية السورة . وقد حاولت أن يكون هذا الكتاب محاكيًا ومقلدًا للمصحف الشريف ، سواء فى ترتيب فصوله بحسب ترتيب السور فى القرآن الكريم أو فى استخدام بعض العناوين التى تقترب من عناوين المصحف الشريف ، من مثل : فاتحة الكتاب ، وخاتمة الكتاب ، ودعاء ختم الكتاب ، والتعريف بالكتاب .

وكان فى نيتى أن أضيف أمرنا جديدًا إلى هذا الكتاب وهو أن أحاكى الناحية الجمالية التى وردت فى الزخرفة القرآنية ، وأورد بعض السور القرآنية بألوانها التى وردت فى بعض المصاحف القديمة والتى تمثل أثرًا جماليًا على مدى الأجيال ، أو أورد بعض الرسومات والزخارف التى وردت فى بداية السور أو فى التعريف بالحزب أو السجدة أو غير ذلك من رسومات تمثل ثروة جمالية تتآزر كلها فى تقديم ناحية جمالية لهذا الكتاب ، تثبت أن العرب والمسلمين لم يقصروا فى هذا الجانب الجمالى ، وأنهم تركوا ثروة هائلة تبرهن على خصوصية الحضارة الإسلامية فى هذا الجانب ، والذى يتفوق كثيرًا على المدارس الفنية الأوروبية ، مما يدفعنا إلى توظيف هذه الثروة الجمالية فى المؤلفات المعاصرة ، بدلاً من أن نلجأ إلى استعارة المدارس الأوروبية والفنون الأوروبية ، التى تعكس رؤية حضارية مختلفة .

أقول كان فى نيتى أن أضيف هذا الجانب الجمالى حتى يكون محاكيًا للمصحف الشريف سواء فى معانيه أو مبانيه أو أشكاله الجمالية ، ولكننى لم أستطع أن أفى بهذا الجانب لأسباب صحية طارئة . فلعل واحدًا من رفاق الكلمة يستطيع أن يضيف هذا الجانب ، فنحن جميعًا نسير فى درب واحد ونتكاتف من أجل غاية واحدة .

من مؤلفات

الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم

• قصص الحب العربية : (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م) .

• من قصص العرب : (الطبعة الأولى سنة ١٩٦٧ م) .

• قصص العشاق النثرية : دراسة فى التراث القصصى (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٢م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م) .

• القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث : (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٣م) .

• الأدب وتجربة العبث : (الطبعة الأول ١٩٧٣م) .

• القصة اليمينة المعاصرة : (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٧م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٦م) .

• **ألوان من القصة اليمنية المعاصرة : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م) .**

• **الوسطية العربية : (٩ أجزاء) .**

- الكتاب الأول : المذهب (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م - الطبعة الثالثة ١٩٩٠م) .

- الكتاب الثانى : التطبيق (الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩م - الطبعة الثانية ١٩٨٦م).

- الكتاب الثالث : نحو وسطية معاصرة (الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م) .

- الكتاب الرابع : نحو رواية عربية (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م) .

- الكتاب الخامس : حلم ليلة قدر (الطبعة الأولى ١٩٩٥م) .

- الكتاب السادس : القرآن الكريم ومذهب الوسطية (تحت الطبع) .

- الكتاب السابع : مسرح الحكيم بين الوسطية والتعادلية (تحت الطبع) .

- الكتاب الثامن : ثلاثية نجيب محفوظ بين التوفيقية والوسطية (تحت الطبع) .

- الكتاب التاسع : على هامش الوسطية العربية (تحت الطبع) .

• المسرح المصرى بين ثلاثة أجيال : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م) .

• القصة القصيرة فى الستينيات : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٨م) .

• القصة القصيرة فى السبعينيات : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م) .

• لقطات آلان روب جرييه : (ترجمة) (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م) .

• الرعشة الأولى وهؤلاء الأدباء : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٦م - الطبعة الثالثة ١٩٩٤م) .

• مقالات فى النقد الأدبى : (١٥ جزءًا) (الجزء الأول سنة ١٩٨٨م) . الجزء الخامس عشر : (تحت الطبع) .

• قاموس الألوان عند العرب : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨م) .

• نقاد الحداثة وموت القارئ : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م) .

• الرواية العربية والبحث عن شكل : الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٨م) .

• حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم :

- الجزء الأول : سنة ١٩٩٦م .

- الجزء الثانى : سنة ١٩٩٦م .

- الجزء الثالث : (تحت الطبع) .

• الأدب المقارن من منظور الأدب العربى : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م - الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م) .

• شواهد ومشاهد : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م - الطبعة الثانية ٢٠٠١م) .

• الرواية العربية والبحث عن جذور : (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٩م) .

- نوادر الحب والحكمة : سلسلة من تراثنا القصصى ، العدد الأول : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م) .
- القصة القصيرة والبحث عن شكل .
- البيت الكبير وقصص أخرى : (الطبعة الأولى سنة ١٩٩٨م) .
- التراث القصصى عند العرب : (تحت الطبع) .
- قال لقمان : الطبعة الأولى - كتاب الوسطية - إبريل ٢٠٠٢م) .
- العرب وعلوم الجمال : (تحت الطبع) .
- نجيب محفوظ والفن الروائى : (تحت الطبع) .
- القصة القصيرة وظاهرة العبث : نماذج من الأدب العالمى : (ترجمة) (تحت الطبع) .
- على هامش القصة اليمنية المعاصرة : (تحت الطبع) .
- أوراق طه حسين : سبعة أجزاء (تحت الطبع) .

مؤلفات حول

فكر الأستاذ الدكتور

عبد الحميد إبراهيم

- البيت الكبير بين أدب اللامقالات واللارواية : أحمد فضل شبلول .
(الأهرام : ٩/١٢/١٩٩٨م) .
- الهوية الثقافية من منظور الوسطية العربية : الدكتور عبد الجواد الفحام .
(جامعة المنيا - مجلة الدراسات العربية - يناير ١٩٩٧م) .
- الوسطية العربية : أحمد جويلى . (جامعة المنيا - مجلة الدراسات العربية) .
- الوسطية العربية : الدكتور عبد الحكيم العبد . (المساء : ٣٠/٧/٢٠٠١م) .
- الوسطية فى التشريع الإسلامى - دكتوراه ، الباحث : عبد الرحمن عبد الغنى .
(جامعة المنيا - كلية الدراسات العربية - قسم الشريعة الإسلامية - ١٩٩١م) .
- الوسطية والبحث عن هوية : الدكتور ثريا العسيلى . (الأهرام : ١/٣/٢٠٠٢م) .
- حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم - ج١ : مجموعة من الكتاب والمبدعين .
(إصدارات جماعة الوسطية - الإصدار الثانى) .
- حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم - ج٢ : مجموعة من الكتاب والمبدعين .
(إصدارات جماعة الوسطية - الإصدار الثالث) .
- حوار مع الدكتور عبد الحميد إبراهيم - ج٣ : مجموعة من الكتاب والمبدعين .
(تحت الطبع) .
- عبد الحميد إبراهيم فى حلم ليلة القدر : الدكتور رأفت حسن رستم .
(القاهرة - إصدارات جماعة الوسطية - تحت الطبع) .
- عبد الحميد إبراهيم فى شواهد ومشاهد : محمد العشرى . (الأهرام : ٢٦/٥/٢٠٠٠م) .

- عبد الحميد إبراهيم فى عيون النقاد : مجموعة من المؤلفين .

(القاهرة – هيئة قصور الثقافة – تحت الطبع) .

- عبد الحميد إبراهيم فى ليلة القدر ، فصل من كتاب « دراسات فى الأدب العربى المعاصر » : الدكتور بشير العيسوى . (القاهرة – دار الفكر العربى – ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م) .
- عبد الحميد إبراهيم قاصًا : الدكتور شعبان عبد الحكيم . (تحت الطبع) .
- عبد الحميد إبراهيم واسطة الأنظومة النقدية : الدكتور سيد قطب والدكتور عبد المعطى صالح .

(القاهرة – الهيئة العامة للكتاب – ٢٠٠١م) .

- عبد الحميد إبراهيم واسطة المنظومة النقدية : الدكتور فاروق عبد الحميد دربالة .

(الأهرام : ٢٠٠٢/١/٨م) .

- عبد الحميد إبراهيم وأصل الحكاية ، فصل من كتاب « أعلام النقد المعاصر » : الدكتور عبد المعطى صالح ، والدكتور سيد قطب . (القاهرة – كلية الألسن – ١٩٩٨م) .
- عبد الحميد إبراهيم والبحث عن هوية : عبد الحافظ بخيت . (تحت الطبع) .
- عبد الحميد إبراهيم والوسطية العربية : الدكتور محمد حسن غانم . (تحت الطبع) .
- عبد الحميد إبراهيم وفن السيرة الذاتية : الدكتور رأفت حسن رستم . (تحت الطبع)
- عبد الحميد إبراهيم ونصف قرن من العطاء : الدكتورة ثريا العسيلى .

(القاهرة – صحيفة العروبة : ٢٠٠١/٥/٣٠م) .

- عبد الحميد إبراهيم ونصف قرن من العطاء : مجموعة من كبار الأدباء والمبدعين – إشراف : الدكتور جمال التلاوى . (المنيا – كلية الآداب – ٢٠٠١م) .
- عبد الحميد إبراهيم ونصف قرن من العطاء : الدكتور نجيب عثمان أيوب .

(الأهرام : ٢٠٠١/٧/٣١م) .

• فصل فى كتاب : « إبداع بلا حدود » : الدكتور سيد قطب ، والدكتور عبد المعطى صالح .

(القاهرة – ٢٠٠٠م) .

• فصل فى كتاب : « الأدب الإسلامى بين النظرية والتطبيق » : الدكتور على على صبح .

(القاهرة – ١٩٩٨م) .

• فصل فى كتاب : « الأدب المقارن » : الدكتور سيد قطب والدكتور عبد المعطى صالح .

(القاهرة – كلية الألسن – د.ت)

• فصل فى كتاب : « بلوغ الغاية فى نقد القصة والرواية » : الدكتور سيد قطب .

(القاهرة – كتاب الوسطية – العدد الخامس) .

• فى صالون الوسطية : إشراف جمال العسكرى . (إصدارات جماعة الوسطية ٢٠٠١م) .

• فى ظل نخلة : الدكتورة عبير سلامة . (الأهرام : ١٩٩٩/٥/٧م) .

• كتاب : « تحديد النوع الأدبى وإشكاليات التجنيس فى إبداعات الأستاذ الدكتور عبد الحميد إبراهيم » : الدكتور رأفت حسن رستم . (جامعة المنيا – كلية دار العلوم – ٢٠٠٢م) .

• مع عبد الحميد إبراهيم . حوارات وشهادات : إشراف : مصطفى القاضى . (تحت الطبع) .

• اللغة المنسية وتأويل الأحلام : الدكتورة سوسن ناجى .

(مجلة الوسطية – العدد الرابع – نوفمبر ١٩٩٩م) .

• بحث عن رواية « شواهد ومشاهد » : الدكتور سعيد الطواب . (جماعة الوسطية – مجلة الوسطية)

• عبد الحميد إبراهيم قاصًا : د. شعبان عبد الحكيم (المنيا – ٢٠٠٢م) .

- عبد الحميد إبراهيم والوسطية العربية : الدكتور محمد حسن غانم . (القاهرة – ٢٠٠٢م) .
- عبد الحميد إبراهيم والبحث عن هوية : عبد الحافظ بخيت . (المنيا – ٢٠٠٢م) .
- عبد الحميد إبراهيم فى حلم ليلة قدر : الدكتور رأفت حسن رستم . (المنيا – ٢٠٠٢م) .
- عنصر المكان والتشكيل الشعبى من خلال التأصيل الأدبى والتشكيل الحضارى : الدكتور رأفت حسن رستم . (جريدة الأهرام – ١٦ أغسطس ٢٠٠٢م) .
- عبد الحميد إبراهيم ناقدًا ، إعداد : على فريد .

(رسالة ماجستير – كلية دار العلوم – جامعة المنيا – تحت الإعداد) .

* * *

الفهرس